سورة العاديات

مكية وهي اثنتا عشرة آية مع البسملة وهي ركوع واحد

إنها سورة مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومَدَنيةٌ في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة. (فتح البيان)

وعبد الله بن مسعود هو من الصحابة السابقين الأولين في الإيمان في مكة، فلا بد من ترجيح قوله على الأقوال الأخرى لكونه شاهد عيان؛ إذ سمع هذه السورة في مكة. أما ابن عباس الذي لم يبلغ سن الرشد إلا في المدينة -إذ كان سنّه في مكة سنتين أو ثلاثًا فقط- فليس المراد من قوله إنها مَدَنية إلا أنه قد سمعها في المدِينة، لا أنها نزلتْ في المدينة، إذ يمكن أن يسمَع الناس في المدينة ما نزل في مكة. وهذا هو المراد من قول أنس أيضًا إذ كان أنصاريًا من المدينة.

والمستشرقون -لا سيما القسيس "ريفرند ويري"- قد اعترفوا بنـــزول هذه السورة في مكة (تفسير القرآن لـــ"ويري"). وأرى أنه قال ذلك لعدم انتباهه إلى أنه لو ثبت نزولها في مكة لأصبحت نبوءة عظيمة، وإلا لما اعتبرها مكية، إذ يشقّ عليه جدًّا وجودُ نبوءة عظيمة في القرآن الكريم. فلو انتقل ذهنه إلى هذا الأمر لقال حتمًا إنها مكية بحسب الروايات، غير أن أسلوبها يدل على أنها مدَنية، والروايات باطلة.

الترتيب والترابط:

اعلْم أن جميع السور السابقة كانت تتحدث عن بعثَتَي الرسول ﷺ الأُولى والثانية، ولكن تغيرَ الأسلوب منذ السورتين الأخيرتين، فبدأت سورةٌ تتناول بعثةَ الرسول ﷺ الأُولى وسورةٌ أخرى تتناول بعثَته الثانية، فسورة "البيّنة" تتحدث عن البعثة النبوية الأولى، وسورة "الزلزلة" تتحدث عن البعثة النبوية الثانية. وهذا الفرق

الموجود بين هاتين السورتين واللاتي قبلهما عجيب حقًا. والسبب وراءه أن السور السابقة كانت طويلة، فكانت كل واحدة منها تتناول زمن البعثتين، أما الآن فالسُور صارت قصارًا -لكي يحفظها الطفل وضعيف الذاكرة بسهولة ويتشرف بحفظ شيء من القرآن الكريم- ولذلك تحدثت السورة الأُولى منها عن زمنَ بعثته ﷺ الأولى والسورة الثانية تحدثت عن زمن بعثته الثانية. وبحسب هذا الترتيب الجديد تتحدث السورة قيد التفسير عن رقي الإسلام زمن البعثة النبوية الأولى، بينما تتحدث السورة التالية (القارعة) عن رقيه زمن البعثة النبوية الثانية، وسوف يستمر هذا الترتيب إلى بضع سور أخرى ثم يتغير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

العاديات: جمعُ العادية: عدا الرجلُ وغيرُه يَعْدو عَدْوًا وعَدَوانًا وتَعْداءً وَعَدًا: جرَى وأحضرَ. وَعَدا فلانًا عن الأمر: صرَفه وشغَله. وعدا عليه: وثب. وعدا الأمرَ وعن الأمر: جاوزه وتركه. وعَدِيَ يَعْدَى عَدًا له: أبغضَه (الأقرب).

ضَبْحًا: الضَّبْح نوع من العدو، حيث قال صاحب المفردات: "قد يقال ذلك للعَدْوِ، وقيل: الضَّبْحُ كالضَّبْع وهو مَدُّ الضَّبْعِ في العَدْو."

وورد في أقرب الموارد: "ضبحت الخيل في عدْوها ضبحًا: أسمعت من أفواهها صوتًا ليس بصهيل ولا حمحمة... وقيل: الضَّبْحُ صوتُ أنفاسها."

وعليه فقوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ يعني ما يلي:

الأول: نقدّم شهادةً تلك المطايا التي تعدو الضبْحَ.. أي عَدْوًا شديدا.

والثاني: نقدّم شهادةً تلك المطايا التي تمدّ حوافرها الأمامية وتقفز في عدوها، فيمتدّ ما بين رجلها وبطنها.

والثالث: نقدّم شهادةً تلك المطايا التي تَخرج أصواتٌ من صدورها عند العدو.

فكل هذه المعاني تشير إلى خيل تعدو بشدّة وقوّة. والواضح أن الحصان لا يعدو بنفسه، بل إن الفارس يعدو به، فالحق أن هذه الآية تتحدث عن فرسان يركضون بجيادهم ركضًا شديدا، أو أنهم يعْدُون بها حتى تخرج أصوات من صدورها غير مبالين بجيادهم، أو أنهم يتحمسون في جريهم حتى يجعلون خيلهم تقفز قفزات طويلة.

التفسير: إنني مسرور جدًا بشأن تفسير هذه السورة لأن الصحابة قد فسّروها بمفهوم يشكّل نبوءة عظيمة. هناك آيات قليلة جدًّا –لا يتجاوز عددها خمسًا أو سبعًا– فسّرها المفسرون القدامى بما يمثّل نبوءةً.

إن المفسرين القدامى عادة يطبقون آيات القرآن على يوم القيامة أو على أحداث الماضي، أما هذه الآية فقال بعض الصحابة ومنهم عليّ –رضوان الله عليهم– إنها تتحدث عن الحج، لكن ابن عباس يقول بكل إصرار إنها تتحدث عن الغزوات الإسلامية، إذ أخبر الله فيها عن الهجمات التي سيشنّها المسلمون ضد الكافرين. (فتح البيان)

الحق أن اتفاق القسيس "ويري" معنا في اعتبار هذه السورة مكية ليس بأمرٍ هيّن، وكما قلت، يبدو أنه اعتبرها مكية لأنه ظن أنها تتحدث عن الحج، أما لو أنه فطن إلى أنها تشير إلى الحروب التي كانت ستقع بين المسلمين والكفار وإلى الصولات التي يشنّها المسلمون على أهل مكة ممتطين جيادهم، لما اعتبرها مكيةً قط. فقوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ إنما هو إشارة إلى حماس فرسان تلك الجياد التي تعدو ضبحًا، إذ لا يركض الحصان ولا يقفز إلا بأمر الراكب. فأيّا من المعاني الثلاثة للضبح أخذْنا فالآية تصف حالة الفرسان، ومعناها: أن قلوب المسلمين ستفيض حماسًا وشوقًا للجهاد، فيخرجون إلى أرض العدو طائرين على متون خيولهم راكضين إياها ركضًا شديدا، غير مبالين بمصيرها من شدة عدوها. إنهم لن يركضوا بخيولهم بشدة شوقًا للقاء عشيقة تنتظرهم، أو لأطعمة شهية قد أُعدّتْ

لهم، أو لمال يخافون أن يسرقه أحد، أو لأحباب يريدون لقاءهم، إنما يركضونها ليصلوا إلى العدو الذي يتعطش لدمائهم، ويسارعون إلى القتال ليضحّوا بأرواحهم في سبيل الله تعالى. فليس الخوف، بل الفرحة والطموح والشوق هو الذي يجعلهم يطيرون على جيادهم إلى ساحة القتال مسرورين.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ إنما هو تعبير عن مشاعر المسلمين الراكبين متون خيولهم، وإن كان يشير إليها في الظاهر.

وهناك روايات مختلفة في بيان معنى هذه الآية، فعن عبد الله بن مسعود وعليّ أن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ هي الإبل. وعن عبد الله بن عباس أنها الخيل، فقد ورد أنه كان جالسًا في الحطيم يعبد الله حين جاءه شخص فسأله: ما معنى ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقال: الخيل. فعلِم عليٌّ ﷺ بقوله، فقال: لم يكنْ عندنا أي خيل يوم بدر، إنما كانت الخيل عندنا أولَ مرة في سرية بعث بها الرسول ﷺ. (فتح البيان)

وقد نقل ابن جرير رواية أخرى عن ابن عباس قال: بينما أنا في الحِجر جالس، أتاني رجل يسأل عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقلت له: الخيل حين تُغِيرُ في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويُورُون نارهم. فانفتلَ عني، فذهَب إلى علي بن أبي طالب ﷺ.... فسأله عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقال: سألتَ عنها أحدًا قبلي؟ قال: نعم، سألتُ عنها ابن عباس، فقال لي: الخيل حين تُغِير في سبيل الله. قال: اذهبْ فادعُه لي. فلما وقفتُ على رأسه قال: تُفتي الناسَ بما لا علمَ لك به؟ والله لكانت أولَ غزوة في الإسلام لبدرٌ، وما كان معنا إلا فَرسانِ: فرس للزبير، وفرس للمقداد. فكيف تكون العاديات ضبحًا! إنما العاديات ضبحًا مِن عرفة إلى مزدلفة إلى منى. قال ابن عباس: فنـــزعتُ عن قولي. (الطبري)

ورغم أن ابن جرير الطبري سجَّل هذه الرواية إلا أنه يقول أيضًا إن العاديات ليست إلا الخيل، وهذا هو رأي جميع تلاميذ عبد الله بن عباس وغيرهم من العلماء، منهم مجاهد وعكرمة وقتادة وعطاء والضحاك. وعن ابن عباس قال: ما ضبَحتْ دابة قطّ إلا كلب أو فرس (الطبري). وقد سبق أن ذكرنا عند شرح معاني الكلمات أن الضَّبْح صوتٌ يصدر من صدور الخيل عند العدو الشديد.

فرغم أن الرواية المذكورة آنفا تقول إن ابن عباس رجع عن قوله، لكننا مضطرون للقول إن آخر موقف تمسكَ به ابن عباس هو أن ﴿العاديات ضبحًا﴾ هي الخيل، إذ كيف يمكن أن يتمسك تلاميذه بهذا المعنى طوال عمرهم رغم رجوعه عنه؟ فبعد شهادة اللغة وإصرار أئمة الأدب نحن مضطرون للقول إن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ هي الخيل، وإن كانت تطلق على الإبل استعارة.

وأما ما قيل بأن تطبيق هذه الآية على الغزوات الإسلامية ليس صحيحًا إذ لم تكن في غزوة بدر عند المسلمين إلا فرسانِ، فهذا القول ليس صحيحا عندي. لا شك أنه لم يكن عندهم يوم بدر خيول كثيرة، لكنهم استعملوا الخيل بكثرة في الحروب اللاحقة، لذا ففيما يتعلق بغزوة بدر نفسر ﴿العاديات﴾ بمعنى الإبل على سبيل الاستعارة تمامًا كما اعتبرنا ﴿العاديات﴾ استعارة وقلنا إن المراد منها فرسانها الذين يَعْدون بها، لأن الجواد لا يجري بنفسه، بل راكبه يركض به فيجري. ذلك أن من أساليب العربية أنهم أحيانًا يذكرون الشيء الكبير ويعتبرون الشيء الصغير مندرجًا فيه تلقائيا، فمثلاً يُعتبر ذكر النساء متضمنًا في ذكر الرجال. فلأن الخيل هي التي تُستعمل عادةً للإغارة فذكرها الله تعالى هنا دون ذكر الإبل، لكن حيث إن الإبل أيضًا تُستخدم في الأعمال الحربية، فذِكْر الخيل يتضمن ذكر الإبل تلقائيا، ولذلك أقول: إذا قلنا إن العاديات أُطلقت استعارةً على الإبل في غزوة بدر فلا حرج في ذلك، إذ من الحقائق الثابتة أن الصحابة أخذوا يُكثِرون من تربية الخيل بمرور الأيام، حتى إن الرسول ﷺ اقتنى خيلاً كثيرة، حيث ورد في الحديث أنه كان عند النبي ﷺ في مختلف الأوقات حوالي عشرة من الخيل والحمير. (البداية والنهاية: ذكرُ أفراسه ومراكيبه ﷺ)

باختصار، يرى معظم الصحابة أن هذه الآية تتنبأ عن الغزوات التي كان على المسلمين أن يخوضوها ضد الكافرين. وهناك حديث يؤيد هذا المعنى بوضوح، إذ يروى عن صحابي في شأن نـــزول سورة العاديات أن النبي ﷺ بعث إلى بني كنانة سرية تحت قيادة المنذر بن عمرو الأنصاري الذي كان من الاثني عشر الذين بايعوا النبي ﷺ في مكة، والذين جعل ﷺ كل واحد منهم نقيبًا على قبيلته في المدينة

المنورة. وكان هؤلاء قد خرجوا على الخيول-كما تشير إليه الرواية المذكورة آنفًا والتي ورد فيها أنه حين بلغ عليًّا ﷺ قولُ ابن عباس عن ﴿العاديات﴾ بأنها الخيل، قال إنما بُعثَت الخيلُ أول مرة في سرية- فلم يصل إلى المدينة خبرُ هذه السرية لشهرٍ، فبدأ المنافقون يقولون إنهم قُتلوا جميعًا. لقد أشاعوا دعايتهم الباطلة هذه لكي تنهار همُ المسلمين فلا يُقدِموا على هذه التضحيات مستقبلا. فأنزل الله هذه السورة التي رسمتْ حال هذه السرية، حيث أخبر الله رسوله أنهم بخير وأنهم أغاروا على العدو ونجحوا في حملتهم. وبالفعل رجعت السرية بعد أيام وأكدوا صحة ما أنبأ الله عنهم في هذه الآيات. (فتح البيان)

وهنا ينشأ سؤال: هذه السورة مكية، فلو سلّمنا بالرواية المذكورة أعلاه، فلا بد من اعتبار السورة مدنية لا مكية، إذ كيف تُعتبر مكيةً من جهة، ومن جهة أخرى ورد في شأن نزولها ما يؤكد أنها مَدَنية.

والجواب: لقد سبق أن بينتُ مرارًا أن من الحقائق الثابتة أن العلماء ذكروا أكثر من سببٍ لنـــزول الآية الواحدة. وقد قال الباحثون إنما المراد من سبب نـــزول آيةٍ ما أنها تنطبق على الحادث المذكور أيضا، وليس أن ذلك الحادث هو سبب نزولها. والأمر نفسه هنا، فحيث إن الخيل قد استُعملت في هذه السرية أول مرة أو بكثرة، فعندما سمع النبي ﷺ إشاعات المنافقين استدل بهذه السورة النازلة سلفًا في مكة بأنها ما دامت تتنبأ عن انتصار الفرسان المسلمين فلا بد أن تتحقق في حق هؤلاء الفرسان على الأقل لكونهم أول كتيبة إسلامية من الفرسان، فلا بد أن يرجعوا منتصرين بإذن الله تعالى. فأعلن الرسول ﷺ بناءً على استنباطه هذا أن هؤلاء الفرسان الذين بَعَثْتُهم سوف يرجعون منتصرين محققين هذه النبوءة، وسوف يكشف الله جبن المنافقين ويفضحهم.

ومن الممكن أن المنافقين لما أشاعوا هذه الدعاية أنزل الله تعالى هذه السورة ثانيةً لاطمئنان المسلمين، وأعلن أن هذه السرية سترجع منتصرة حتمًا لأن الله تعالى قد سبق أن أنبأ عن هذا، وسوف ترون أن نبأ الله هذا سيتحقق حتما، ولن تتحقق أقاويل المنافقين. ومثال ذلك ما وقع مع المسيح الموعود عليه السلام حيث قال: "كان

والدي المرحوم قد رفَع قضيةً ضد رعيته في حقوق أرضه، فانكشف عليّ في الرؤيا أننا قد ربحنا القضية في المحكمة. فذكرتُ هذه الرؤيا لأحد الآريين الهندوس من قاديان. وصادف أن حضر المدَّعى عليه مع بعض شهوده في المحكمة يوم جلستها، ولم يحضر من طرفنا أي محامٍ أو غيره. وفي المساء رجع المدّعى عليه وشهوده وقالوا قد سقطت القضية المرفوعة ضدنا. وعندما سمع ذلك الهندوسي هذا الخبر استهزأ بي وكذَّبني، فأصابني من القلق والكرب ما لا يوصَف، إذ لم يكن مرجّحًا أن يكون مخالفًا للواقع قولُ هذه المجموعة الكبيرة التي يوجد فيها بعضُ مَن ليس طرفًا في القضية. وفي هذه الحالة من الحزن والكرب الشديدين تلقيتُ من الله تعالى وحيًا رسخ في قلبي كالمسمار الحديدي: "لقد ربحتَ القضية، مُسلِم؟".. أي لماذا لا توقن بما أخبرتُك وتشكُّ فيه رغم كونك مُسلِمًا. ثم تبينَ بعد تحرّي الأمر أن الحكم كان قد صدر في صالحنا فعلاً، ولكن الفريق الآخر أخطأَ في فهم الحُكم." (التذكرة ص ٦، والبراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٦٥٨ الهامش الثاني)

فترى أن المسيح الموعود عليه السلام يخبر هنا الناس ما أنبأه الله تعالى به، ثم يتحقق ما قال، ولكن الآريين الهندوس يشيعون إشاعات باطلة، فيُطَمْئنُه اللهُ تعالى ويوحي إليه ثانية: لقد ربحت القضية، مُسلِم؟ أي ما دمت مسلمًا فلماذا لا توقن بكلام الله تعالى؟ فقد ربحت القضية فعلاً. كذلك فمن الممكن تمامًا أن المنافقين عندما أشاعوا دعايتهم الزائفة أنزل الله على رسوله ﷺ قوله ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ مرة أخرى، مؤكدًا له أن الانتصار حليفك، وقد أخبرناك بذلك سلفًا في أنبائنا، وإن المنافقين لكاذبون.

على أية حال، أرى أن كلا الاحتمالين وارد. فمن الممكن أنه عندما ذهبت هذه السرية الأولى على الخيل وأشاع المنافقون أن جميع من فيها قد قُتلوا، فقال الرسول ﷺ: إنها أول سرية فيها خيل، وهي الأَوْلى بأن يتحقق فيها النبأ الوارد في قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فكيف يمكن أن يُقتلوا؟ فظن السامع لقوله ﷺ أن هذه السورة قد نزلت الآن، مع أن النبي ﷺ كان يعني بأن الله تعالى قد سبق أن أخبرنا بفتحنا في هذه السورة، فكيف يمكن أن يُقتل أصحاب السرية؟ كما أن مِن الوارد

أيضا أن الله تعالى قد أعاد إنزال هذه السورة المكية على رسوله ﷺ لطمأنة المسلمين. فأيا كان الأمر، فإن الرسول ﷺ قد اعتبر هذه الآيات نبوءةً، مما يدل على أن تطبيق هذه الآيات على الغزوات الإسلامية صحيح تماما، وهذا المعنى مدعوم من قول النبي ﷺ.

وليكن معلوما أن "الضّبْح" يطلق على أصوات الحيوانات الأخرى أيضًا كالبوم والثعلب والأفعى السوداء والأرنب، وكذلك يطلق على صوت القوس. وهنا ينشأ سؤال: ما دام الضّبْح يطلق على أصوات الحيوانات الأخرى، فكيف نقصِر قوله تعالى ﴿والْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ على الخيل؟ لماذا لا يقال أنه ينطبق على الإبل أيضا، وأن ما قاله عليّ وعبد الله بن عباس ﷺ صحيح؟

الجواب: فيما يتعلق بالمجاز فنحن أيضا نقول إن الإبل مذكورة في قوله تعالى ﴿والْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، لأنه ما دام يعني الخيل التي هي أكثر استعمالا في الإغارة، فقد اندرجت في ذكرها الإبل على سبيل المجاز تلقائيًا لكونها تُستخدم أيضًا في الإغارة وإن كان استعمالها أقلَّ من الخيل. أما القول أن "الضّبْح" ما دام يطلق على أصوات حيوانات أخرى كالبوم وغيره، فلا بد أن يكون المراد من قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الإبل، فهذا قياس مع الفارق، إذ لا مقارنة بين الإبل والبوم. لا شك أن الضّبْح يُطلق على أصوات حيوانات أخرى، ولكن معنى الضبح مع قوله تعالى ﴿العاديات﴾ لا ينطبق إلا على الخيل. إن الله تعالى لم يستعمل هنا كلمة الضبح وحدها، بل قال ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ فلا بد أن يراد منه تلك العاديات التي يخرج من صدرها عند عدوها الشديد صوت يسمى ضبحًا. وقد بينتُ أن اللغة تبين صراحة أن الضبح يطلق على صوت يخرج من صدور الخيل عندما تعدو عدوا شديدا، فثبت أن قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ لا يعني إلا الخيل، كما يندرج فيها الإبل استعارةً لا حقيقةً.

ومن لطائف هذه الآية أن الخيل لا توجد في مكة إلا قليلا، وإنما تكثر فيها الإبل. عندما ذهبتُ للحج، لم نجد خيلاً للركوب وإنما وجدنا حميرًا. وحيث إن ركوب الحمار غيرُ محبَّذٍ في بلادنا، فقلتُ لأصحابي والمسؤولين أن يبحثوا لي عن

حصان. فلم يجدوا رغم بذل جهد كبير إنما وجدوا بغلة ثمنها ٣٠٠٠ روبية. فركبتها، وركب أصحابي الحمير ونحن في طريقنا إلى غار ثور، فسبقوني بنصف ميل، فنـــزلتُ من على البغلة وركبتُ الحمار ووصلت هناك. فالخيل قليلة في مكة، وكانت أقلّ في زمن نـــزول هذه السورة، إذ كان الناس يستخدمون الإبل عادة. لكن الله تعالى قال عندها ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فأنبأ أن ركاب الإبل هؤلاء سيصبحون فرسانًا في يوم من الأيام. كما قلتُ لم تزل الخيل تكثر عند المسلمين بعد ذلك لأنها أكثر نفعًا من الإبل في القتال.

ومن الأسباب الأخرى لتربية المسلمين الخيول بكثرة أن القرآن الكريم والرسول ﷺ قد اعتبرا تربيتها سببًا لمرضاة الله تعالى، فقد أمر الله تعالى المسلمين أمرًا صريحًا وقال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال:٦١)، كما حثّهم النبي ﷺ على تربية الخيل من أجل الجهاد لينالوا عند الله أجرا عظيما، فقال: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" (البخاري: كتاب الجهاد). وقال ﷺ: "مَن احتبسَ فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شِبْعَه ورَيَّه ورَوْثَه وبَوْلَه في ميزانه يوم القيامة" (البخاري: كتاب الجهاد). وهناك أحاديث أخرى كثيرة أخبر فيها الرسول ﷺ أن في اقتناء الخيل للجهاد أجرًا عند الله تعالى، ولكن لا يوجد مثل هذه الأحاديث في الإبل، مما يوضح أن المشيئة الإلهية إنما كانت أن يهتمّ المسلمون باقتناء الخيل بُغْيَةَ الجهاد أكثر من اهتمامهم بالإبل.

كل هذه الأمور تدل أن ﴿العاديات﴾ هنا هي الخيل. هذا ما أكده القرآن الكريم والحديث واللغة أيضا، ورد في اللغة أن الضبح ضربٌ من عَدْو الخيل، كما يعني الصوت الذي يخرج من صدور الخيل عند العدْو الشديد، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾.. أيها المسلمون، سوف تخوضون الحروب في المستقبل. لا شك أن مطيتكم المحلية هي الإبل، لكننا نوصيكم باقتناء الخيل وتربيتها أكثر، لأنها أنفعُ من الإبل في القتال، واعلموا أن النصر حليفكم إذا استخدمتم

الخيل في حروبكم. وقد عمل الصحابة بهذه الوصية الإلهية حيث كثرت عندهم الخيل بمرور الأيام.

فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الموريات: أَوْرَى الزَّنْدَ: أخرجَ نارَه. (الأقرب)

وقدَح بالزَّند: رامَ الإيراءَ به (الأقرب).. أي أراد إشعال النار به.

التفسير: قد فسر البعض قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾: أورتْ النارَ بحوافرها. وقال البعض: إنها إشارة إلى النار التي يوقدها الناس لإعداد الطعام بعد الحرب، أو أنها النار التي يوقدها الناس في مزدلفة. أما ابن عباس فقال: هي النار التي يوروها عند العودة من الحرب. (الطبري)

في الماضي لم تكن هناك عيدان الكبريت، فكان أهل البيوت يدفنون بعد إعداد الطعام قبسًا من النار تحت الرماد ليشعلوا به النار ثانية. هذه العادة لا تزال في القرى عندنا، حيث يدفنون قبسا من النار تحت الرماد بعد إعداد العَشاء، وفي الصباح يخرجونه ويضعون عليه أوراقًا أو قطعًا من الخشب وما شابه ذلك، فتشتعل النار ثانية، أما البيت الذي تخمد عند أهله النار فيأخذون قبسًا منها من الجيران. ولكن ذلك محال في أثناء الحرب، ولذلك كانوا يحتفظون معهم بالزند الذي كانوا يضربونه بالحديد فتخرج منه الشرر فيقرّبون منها قطعة قماش أو أوراق جافة وما إلى ذلك، فتشتعل. في الصغر كنا نوقد النار من الزند، فكان البسطاء يظنون أننا نأتي بمعجزة. لا تزال عادة إيراء النار بالزند موجودة عند الأوروبيين، لكنها قد اختفت من بلادنا الآن. وهذه العادة عند الألمان أكثر وجودًا، كما توجد عند الإنجليز أيضًا، حيث يمدّون به الجنودَ في الحرب لإشعال السجائر.

يُربط حجر القداحة بدوّار حديدي بجنبه زنبرك، وحين يُضغَط على الزنبرك يدور الدوار الحديدي، فيصطـــدم مع حجر القداحة ويولِّد الشرارة، فيشتعل فورًا

الفتيل الذي يكون بجنبه، فتُشعَل بها السيجارة، ويُطفَأُ الفتيل بعد ذلك فورا.

لقد كان لهذا الجهاز رواج كبير عند الألمان، حيث كانوا يبيعونه بكثرة. ولكن قد نُشر في الجرائد قبل أيام أنهم قد اخترعوا للجنود قدّاحات متطورة لإشعال السجائر. وكانت قد أُعدّت خاصة من أجل الجنود الذين يخدمون في بورما، إذ لا توقد النار هناك بسهولة لكثرة الأمطار التي تجعل الأشياء رطبةً.

وفي الماضي كان الجنود يستخدمون الزند عادة، فيرى ابن عباس أن قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ إشارةٌ إلى فرسان يوقدون النار لإعداد الطعام بعد عودتهم من الحرب. ولكن ليس صحيحًا قوله أنهم يفعلون ذلك لدى عودتهم من الحرب، ذلك أن الآية التي تلتها تتحدث عن الإغارة، حيث قال الله تعالى ﴿فَالْمُغِيراتِ صُبْحًا﴾، والفاء تفيد الترتيب عادةً، مما يدل على أنهم يورون القدح قبل الهجوم وليس العكس. وعندي أننا لو فسرنا قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ بمعنى إيقاد النار لإعداد الطعام، فالأفضل أن نقول في المعنى أن الصحابة إذا خرجوا لشن الغارة على قوم لم يغيروا عليهم فور وصولهم إليهم عملاً بالسنة النبوية، بل إذا اقتربوا من القوم نزلوا من مطاياهم وأعدوا طعامهم وباتوا هنالك، ثم أغاروا عليهم في الصباح، ذلك لأن الله قال أولاً ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ ثم قال ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾. والثابت من التاريخ أن النبي ﷺ ما كان يغير على قوم فورًا، بل كان ينـــزل قريبًا منهم على مسافة ميل أو ميلين، ويبيت هنالك، ويهاجمهم في الصباح. (البخاري: كتاب المغازي، وتفسير ابن كثير)

إذن، فإذا كان لا بد أن نفسر الآية بأن معناها أنهم يورون النار لإعداد الطعام فيجب أن نقول إنهم كانوا يعدّون الطعام ويبيتون قريبًا من القوم قبل الهجوم.

إذًا فمعنى الآيتين: أن المسلمين متحمسون لخدمة الدين والتضحية ابتغاء مرضاة الله بحيث إنهم إذا خرجوا للقاء العدو الذي هو أكثر منهم عدةً وعتادا طاروا إليه راكضين خيولهم بشدة غير مبالين بحياتها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يتحلون بأخلاق إسلامية سامية حتى في الحرب حيث لا يفاجئون العدو بالهجوم إذا بلغوا

على رأسه، بل ينـــزلون عن متون خيولهم ويجهزون الطعام ويبيتون هنالك، ثم إذا أصبحوا، شنّوا الهجوم. وهكذا كانت سنة النبي ﷺ، فكان لا يغير على أحد بالليل، كما لم يسمح لأصحابه بالإغارة الليلية. الواقع أن العرب كانوا قبائل بدوية تتنقل من مكان إلى مكان دائما، فكان الرسول ﷺ شديدَ الحذر، إذ قد تكون قبيلة أخرى قد حلّت هناك بدلاً من العدو، فقد يغير المسلمون عليها خطأً، لذا كان ينهاهم عن الهجوم ليلاً ويقول لهم: لا تغيروا على العدو وهم نيام، بل عليكم الانتظار حتى الصباح، فإذا سمعتم منهم الأذان فلا تهاجموهم، وإذا أردتم الهجوم عليهم فلا بد أن يصل أذانكم إلى مسامعهم، ويعرفوا أن المسلمين قد جاءوا للهجوم.

إذن، فقوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ إشارة إلى سمو أخلاق الصحابة، حيث بين الله تعالى أن المسلمين اليوم مغلوبون في مكة، يحتقرهم كبراء قريش ويذلّونهم ويؤذونهم بلا هوادة ضاربين بالأخلاق عرض الحائط، ولكن عليهم أن يتذكروا أن هؤلاء الضعفاء القليلو الحيلة سيصبحون غالبين، ويأتون لحربهم على متون جيادهم بدلاً من متون الإبل، ليضحوا بأنفسهم في سبيل الله تعالى. كان الحصان شيئًا عجيبا لقريش، وكان النجديون فقط يربّون الخيول، فكان أهل مكة يهابونهم، ولذلك يخبرهم الله تعالى أنه سيأتي يوم ينال فيه المسلمون القوة ويربّون الخيل بكثرة. تظنون أنهم يضحون بأرواحهم بسبب ضعفهم، لكنه خطأ منكم. كلا، بل إنهم عندما ينالون القوة ويركبون متون الخيل فعندها أيضا سيعتبرون التضحية بأرواحهم في سبيل الله تعالى مفخرة، فيتحمسون للقتال حماسًا شديدًا، فيطيرون إلى عدوهم على متون خيولهم راكضين إياها بشدة. ولكن من ناحية أخرى تكون أخلاقهم عالية بحيث لن يفاجئوا العدو الغافل ولن يغيروا عليه ليلاً. أما أنتم فلا تبالون بأي أخلاق، بل إذا وقع مسلم في قبضتكم ضربتموه ضربًا وأهنتموه أشد الإهانة، أما المسلمون فلا يمكن أن يتخلوا عن الأخلاق، بل إنهم حين ينالون القوة ويمتطون متون جيادهم فلن يفاجئوا قومًا بالهجوم، بل إذا خرجوا لشن الغارة على قوم باتوا عندهم منتظرين حتى الصبح، فإذا بلغ أذانُ العدو مسامعَهم امتنعوا عن

الهجوم، وإذا لم يسمعوا الأذان منهم بلّغوا أذانهم إلى مسامع الأعداء حتى يتنبهوا ويستيقظوا ويعدّوا عدّتهم للمواجهة.

باختصار، إن هذه الآية لا تشير إلى سمو أخلاق المسلمين فحسب، بل إلى شجاعتهم أيضا. ذلك أن الذين يريدون حرب العدو يطفئون نيرانهم بالليل عادة كي لا ينتبه العدو إلى وجودهم، ولكن المسلمين إذا خرجوا لحرب قوم أشعلوا نيرانهم و لم يطفئوها خوفًا من العدو.

كما أن هذه الآية تشير إلى سخاء المسلمين وكرمهم، لأن إشعال النار كنايةٌ عن السخاء والشجاعة أيضا، فما زال شعراء العرب يعيّرون أعداءهم قائلين: إن نارنا لا تزال تتقد، أما ناركم قد انطفأت، بمعنى أننا شجعان بواسل لا نبالي إذا رأى العدو نارنا وعرف وجودنا ومكاننا، كما يعنون به أنكم أيها الأعداء تطفئون نيرانكم بعد تناول الطعام ليلاً حتى لا يأتي إليكم مسافر للطعام برؤية النار، أما قومنا فهم مضيافون، فلا تزال نارنا مشتعلة لكي يراها المسافر والتائه ويأتينا ويأكل عندنا.

إذن، فقوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ يتضمن الأمرين، أي أننا قوم شجعان بواسل لا نطفئ نيراننا خوفا من العدو، بل لا نزال نوقدها شجاعةً. ثم أنتم قوم بخلاء كَنود لا تريدون إطعام أحد، ولكننا لا نزال نشعل نيراننا حتى يهتدي إليها المسافر والفقير والمسكين ويأكل طعامنا، وهذا المعنى أكثر انطباقا هنا نظرا إلى معنى الكنود.

هناك معنى لطيف للغاية ذكره المفسرون وهو أن الله تعالى قد استخدم في ذكر الليل ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾، وفي ذكر النهار ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾، فذكر في الموضعين ما كان أنسب وأولى، فالنقع الثائر لا يرى بالليل، وضوء النار لا يرى بالنهار. فقال أولاً ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أي أن هؤلاء القوم يوقدون نيرانهم بالليل متحدّين العدو: ها قد جئنا لحربكم، ثم قال ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾.. أي أنهم يشنون الغارة على العدو في الصباح على جيادهم مثيرين الغبار كي يراهم من بعيد قادمين. فالآيتان تشيران إلى شجاعة المسلمين وبطولتهم.

فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

المغيرات: أغار الرجلُ: أتى الغَوْرَ. وأغار زيدٌ: ذهَب في الأرض. وأغار: إذا أسرعَ ودفَع في عَدْوه. وأغار على القوم غارةً وإغارةً ومَغارًا: دفَع عليهم الخيل وأخرجَهم مِن جنابهم بهجومه عليهم وأوقعَ بهم. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا خصلة أخرى للمؤمنين بأنهم لا يهاجمون الأعداء وقت الليل، حتى لا يقتلوهم وهم غافلون، إنما يشنون عليهم في الصباح غارة تُخرِجهم من بيوتهم. ولا شك أنه عملٌ بطولي سنَّه الإسلام. يدّعي الأوروبيون العدل والشجاعة، ولكنهم يعتبرون الإغارة على الأعداء الغافلين ليلا ميزةً من مزاياهم، لكن الإسلام يخبر أن المسلمين لا يفعلون ذلك، بل يهاجمون صباحا، مما يدل على أنهم شجعان بواسل ورحماء أيضًا، فكلمة ﴿المغيرات﴾ أيضا تدل على شجاعتهم لأن الإغارة تعني شنّ الهجوم على العدو بإخراجه من بيته للمواجهة. وكأن الله تعالى يقول ليس من دأب المؤمنين اقتحام البيوت وقتل الأطفال والنساء والعجائز، بل إنهم يتَحَدَّون الأعداء ليخرجوهم من بيوتهم ثم يشنّون الغارة على صفوفهم، مما يدل على شجاعتهم. أما لفظ ﴿صُبْحًا﴾ فيشير إلى أنهم لا يغيرون ليلا، بل صباحا، حتى لا يبقى العدو غافلا، بل يُعِدّ عدّته للقتال.

فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

نَقْعًا: النقع: الغبارُ؛ الأرضُ الحَرّةُ الطينِ يستنقع فيها الماء؛ القاعُ؛ محبسُ الماء؛ موضع قرب مكة. (الأقرب)

ويرى بعض المفسرين أن النقع موضعٌ ما بين مزدلفة ومنى، ولذلك فسر علي ﷺ قول الله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أنهم الحجاج يسرعون ما بين عرفة إلى المزدلفة ثم إلى منى. ﴿فتح البيان)

وقال أبو عبيد: النقعُ: رفْعُ الصوت. ثم قرأ بيتًا للبيد دعمًا للمعنى الذي ذكره.

وهناك قول نُقل عن عمر ﷺ أنه استعمل النقع بمعنى الصوت العالي، فعندما بلغه خبرُ وفاة خالد بن الوليد ﷺ قيل له إن النساء يبكين عليه، فقال عمر: تبكي النساءُ ولا أجد نَقْعًا ولا لَقْلَقَة.*

التفسير: وضمير الغائب في (به) يعود على الصبح، أي أثرنَ وقت الصبح نقعًا. لقد بين الله تعالى هنا أمرا لطيفا يدل على شجاعة المسلمين. فقد يظن البعض بسبب قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أن المسلمين إنما يخرجون متحمسين على متون خيولهم التي يركضونها بشدة، لمعرفتهم أنهم لن يواجهوا العدو فورًا، إنما يبيتون هناك ويستريحون، فحماسهم هذا ليس جديرا بالإشادة إذ يُبدونه حين يكون الاشتباك مع العدو بعيدا، أما إذا وصلوا قريبا من العدو خمد حماسهم، وركنوا إلى الأكل والشرب والنوم بدلاً من الهجوم عليه، فردّ الله على هذه الشبهة بقوله ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾.. أي أنه ظن باطل؛ فإن المسلمين لا يبدون الحماس والشجاعة عندما يكون العدو بعيدا، إنما يزدادون حماسًا عند مواجهته، فيغيرون عليه غارات تثير الغبار ويملأ الجوّ حتى في وقت الصباح. ومعلوم أن الغبار لا يثار عادةً وقت الصباح بسبب الندى، إنما يثار بعد الظهر وفي المساء بسبب جفافه بحرارة الشمس، ونشاهد هذا المشهد في القرى، فإن المواشي عندما ترجع من مراعيها في المساء يكون الجو كله مغبرا، بينما لا يكون الأمر كذلك في الصباح حين تروح للرعي. فإثارة المسلمين النقع في الصباح إشارةٌ إلى أمرين، أوّلُهما: أنهم لا يهاجمون العدو

* يبدو أنه حصل سهو هنا، لأن نص ما ورد في (أُسد الغابة: خالد بن الوليد) هو: ولما بلغ عمر أن نساء بني المغيرة اجتمعن في دار يبكين على خالد، قال عمر: ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقعٌ أو لقلقةٌ. (المترجم)

ليلاً، والثاني أن عندهم حماسًا شديدًا للجهاد، حيث إنهم لا يشنون على العدو الغارة إلا بعد إعلامه وإثارته، كما تكون غارتهم شديدة يغبرّ بها الجوّ في الصباح أيضًا.

ويمكن أن يكون ضمير الغائب في (به) راجعًا إلى فعل الغارة، أي تكون غارتهم شديدة تثير النقع. وفي هذه الحالة تُعتبر الباء في (به) سببية، أي أثرن نقعًا بسبب الغارة. ولأن التنوين في (نَقعًا) يدل على الكثرة والشدّة، فالمعنى: فَأَثَرْنَ بفعل الغارة نَقْعًا كثيرا. وهذا أيضا دليل على شوق المسلمين للجهاد وشجاعتهم، لأن المرء إذا أراد الهجوم المباغت نصح أصحابه بالتقدّم على مهل بدون إثارة الغبار حتى لا ينتبه العدو، لكن الله يقول هنا: إنهم لا يثيرون الغبار فقط، بل يثيرونه جدًّا.

وقد تكون الباء في (به) للملابسة، فيكون قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ إشارة إلى أنهم محترفون في فنّ القتال، ذلك أن ركض المرء الفرس ركضًا شديدا فنّ في حدّ ذاته، ثم حمله الرمح للهجوم وتصويبه نحو العدو أثناء الهجوم مع الركض الشديد فن آخر، فالمراد أنهم يركضون بخيولهم ركضًا شديدا مع إجادتهم القتال، إذ المحارب العادي يمكن أن يركض حصانه بشدة ولكنه لا يستطيع القتال جيدًا خلال ركضه، بل يضطر إلى تخفيف سرعته من أجل القتال، لكن الماهر يركض حصانه بشدة، كما يجيد القتال في الوقت نفسه. ففي أثناء لعبة الطعن بالرماح على الخيل يأتي الفارس العادي راكضًا حصانه بشدة، لكن حين يقترب من الوتد الذي يريد إصابته برمحه يخفض من سرعة حصانه، لكن الفارس الماهر يأتي بفرسه راكضًا بشدة ويصيب هدفه من دون أن يخفف سرعته. عندما زار الملك البريطاني الهند أقيمت ألعاب بما فيها مسابقة الطعن بالرماح على الخيل، فرأينا أن بعض الفرسان كانوا يخففون من سرعتهم عند وصولهم قريبًا من الهدف، لكن بعضهم كانوا يأتون راكضين خيولهم وينـــزعون الأوتاد برماحهم بدون أن يخففوا من سرعتها شيئا. وبعض الناس يكونون ماهرين لدرجة أنهم لا يجلسون على متون الخيول بل يتمدّدون على ظهرها راكضين إياها بشدة ويصيبون الهدف، مع أن الراكب العادي لا يستطيع أن يجلس بسهولة على متن الحصان الذي يعدو بهذه السرعة.

فركضُ الحصان بشدة فنّ بحد ذاته، والقتال مع الركض الشديد فن آخر. أما ركْضُ الحصان وحده فلا يُعتبر فنًّا، بل لا بد للفارس أن يركض فرسه بشدة، كما يجيد الهجوم في الوقت نفسه. فقوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ إشارة إلى الأمرين؛ أنهم يأتون راكضين خيولهم، وفي الوقت نفسه يكونون جاهزين للانقضاض على العدو، فلا تمنعهم سرعة خيولهم من الإغارة. وهذا يدل على كمال حماسهم ومهارتهم في القتال، وأنهم قد أعدّوا عُدّتهم للجهاد ليل نهار حتى اكتسبوا المهارة الكاملة في فنون الحرب. ورد في الحديث أن الرسول ﷺ سمح للأحباش مرة بأن يتبارزوا بالرماح في المسجد، فلم يستمتع بلعبتهم بنفسه فحسب، بل جعل أهل بيته أيضا يشاهدون هذه اللعبة (البخاري: كتاب الصلاة).

كذلك ورد أن الصحابة كانوا يتدربون على الرماية دومًا، وذات مرة انقسموا إلى فريقين يتبارون في رمي السهام، فجاء النبي ﷺ وانضمّ إلى أحد الفريقين، فأمسك الفريق الآخر بسهامهم وقالوا: يا رسول الله، كيف يمكن أن نرمي وأنت معهم؟ (البخاري: كتاب الجهاد)

فثبت أن الصحابة كانوا يعدّون عدّتهم للقتال دائما ويسعون لاكتساب المهارة في الفنون الحربية، وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾.. أي أيها الكفار، تعتبرون المسلمين ضعفاء عديمي الحيلة اليوم، ولكننا نخبركم أن هؤلاء الضعفاء في الظاهر سيكتسبون مهارة عالية في فن الرماية، ولن يكونوا كمثل فرسان أغرار إذا ركضوا خيولهم بشدة لم يستطيعوا الإغارة، وإذا أغاروا لم يستطيعوا الركض، بل سيجمعون بين الإغارة وبين ركض خيلهم بشدة، ويكونون مهرة في فنون الحرب، ويثيرون النقع من شدة حربهم وحماسهم.

فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾

التفسير: وضمير الغائب في (به) يمكن أن يعود إلى النقع أو إلى الصبح، فإذا كان راجعًا إلى النقع فالمعنى أنهم يصلون إلى العدو مثيرين الغبار، أي لا يتوقف

حماسهم عندما يقتربون من العدو، بل يصلون إليه راكضين الخيل ومثيرين الغبار، فينقضّون على صفوفه بدون تردد وتوقف. وهذه إشارة إلى بسالتهم. ويخبرنا التاريخ أن الصحابة كانوا شجعانًا وبواسل حقًا.

ولو اعتبرنا ضمير الغائب راجعًا إلى الصبح، فالمراد أن الصحابة يشقّون صفوف العدو وقت الصباح، وهذا إشارة أخرى إلى أنهم لا يشنون الغارة على العدو فجأة، بل يغيرون عليه بعد أن خرج للقائهم. نجد الإنجليز والروس والأمريكان كلهم يسعون اليوم لأن يهاجموا العدوَّ وهو نائم، ويعتبرون هذا ميزة عظيمة، لكن الله تعالى يخبر هنا أن عبادنا المؤمنين لن يكونوا هكذا، بل سوف يخرجون للقاء العدو مصبحين وصائحين، ولن يهاجموه حتى يخرج للقائهم، وإذا لم يخرج انتظروه حتى يخرج. هذا المعنى مستنبط من قوله تعالى ﴿جَمْعًا﴾ حيث لم يقل الله تعالى هنا أنهم يهاجمون نساء العدو وأطفالهم وعجائزهم، أو يهاجمون شخصًا ضعيفا وجدوه هنا وهناك، بل يشنّون الغارة على تجمُّع العدوّ. فقوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يتضمن المفهومين؛ الأول أنهم لا يغيرون في الليل بل في الصباح، ويغيرون على العدو حين خرج وتجمَّعَ لقتالهم وجهًا لوجه. بتعبير آخر أولاً: إنهم يُخرجون العدوَّ من بيته، ثم يهاجمونه، ولا يفاجئونه نائما، وثانيًا أنه لا يمكن أن يأتوا متحمسين راكضين خيولهم ثم عندما يرون العدوّ يفتر حماسهم. باختصار، إذا أرجعنا الضمير إلى الصبح، فالمراد أنهم يغيرون على العدو في الصباح حين يتجمع للمواجهة، وإذا أرجعناه إلى النقع، فالمراد أنهم حين يرون العدو لا يفتر حماسهم، بل يزدادون حماسًا حين يرونه مصطفًا لقتالهم، فينقضون على صفوفه، ويشقونها. فأحد المعنيين يشير إلى أخلاقهم، والثاني إلى حبهم وحماسهم وفدائهم وتضحيتهم للإسلام.

وهناك معنى لطيف آخر في حالة اعتبار ضمير الغائب (به) راجعا إلى الصبح، وهو أنهم لا يغيرون على العدو في الصباح فحسب، بل ينتهون من عملية شق صفوفه وبعثرتِهم في الصباح الباكر. وقد ذكر ابن جني هذا المعنى فقال: "أي: ميّزنا به جمعًا، أي جعلناه شطرين، أي قِسميْن وشقّين" (روح المعاني)، بمعنى أن

هجومهم يكون ناجحًا جدًّا، فلا يمضي وقت طويل حتى يخرقوا صفوف العدو وينتصروا عليه.

والحق أن كلمة ﴿فوسطن﴾ تشير إلى هذه الحقيقة، لأن قوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ لا يعني مواجهة العدو فقط، بل يعني خرق صفوفه والوصول إلى قلبه وتشتيته. فمن أهم واجبات قائد الجيش ألا يدَع العدو يخترق صفوف جيشه، وإلا فإنهم يتشتّتون ولن يستطيعوا الهجوم بجبهة موحّدة. ولذلك يسعى القادة المحنكون دائما ألا تحدث الثغرة في صفوفهم رغم هجوم العدو الشديد. ولكن في بعض الأحيان يضغط العدوّ بشدة حتى يكون هناك خطر تمزّق الصفوف، فينسحب القائد المحنك بجنوده قليلا كي لا تتبعثر جنوده، ويعيد الكرَّة ثانية، وهذا ما أشار إليه الله تعالى بقوله ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾(الأنفال:١٧)، وهذا ما يسمى بالإنجليزية الانسحاب المنظم (Orderly retreat).. أي الانسحاب القليل من ساحة القتال مع المحافظة على الصفوف. فمن أهم مبادئ القتال الحفاظ على الصفوف، وكذلك خرق صفوف العدو بأي طريق، وهو ما يسمى بالإنجليزية (spearhead)، لأن خرق صفوف الأعداء يجعلهم مشتتين مفرَّقين، فيستحيل على قائدهم أن يعطيهم أوامره، لأنه إذا أصدر أوامره لأحد الطرفين، فإن العدو يكون بينهما، فيقضي على خططه بسرعة. باختصار، عندما يضغط العدو ضغطا شديدا، فإن القائد الذكي ينسحب بجنوده قليلا دونما تأخير. ويجب أن يكون عند الجنود من القوة الأخلاقية بأنه إذا أمرهم قائدهم في حالة التشتت والانتشار أن ينسحبوا قليلاً، فيجب أن ينسحبوا، وإلا فإن هزيمتهم مؤكدة.

إذن، فقوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يعني أنهم يخترقون صفوف العدو صباحا ويمزقونها ويشتتونها في وقت غير طويل. وهذا المعنى يردّ على شبهة تقول أن الله تعالى قال أولاً ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ أي أنهم يشنون الغارة في الصباح، ثم قال ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي أنهم يهاجمون العدو صباحا، فهذا تكرار! وما الحكمة فيه؟

فجوابه: أن الآيتين فيهما معنيان منفصلان. لقد قلنا سلفًا إن قوله تعالى ﴿فَالْمُغيراتِ صُبْحًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يعني أن هجوم المسلمين وانتصارهم لا

يستغرق وقتا طويلا، فإنهم يهاجمون صباحا وينتصرون صباحا، أي أنه لا تمضي ساعات بعد الهجوم إلا وينتصرون. فكأن الله تعالى يحذر هنا الكافرين: لا تغترّوا برؤية ضعف المسلمين اليوم، ولا تظنّوا أنهم سيبقون على هذه الحالة من الضعف وقلة الحيلة، بل الحق أنهم قوم شجعان، فإنهم حين يحملون السيوف بإذنٍ منا، يُنهون مهمتهم في وقت قليل جدا، ويصبحون غالبين على العدو في لمح البصر مرفرفين رايات النصر.

وبالفعل نرى أن كل غزوات النبي ﷺ انتهت خلال بضع ساعات، إلا التي حاربه فيها العدو متحصنا. لا شك أن غزوة الأحزاب قد طالت، لكن سببه أنه ﷺ منع الصحابة من الهجوم وأمرهم بالدفاع فقط. وكذلك قد طالت غزوة خيبر، لكنها كانت ضد العدو المتحصن في حصنه. كذلك طالت حرب بني قريظة لأنهم أيضًا كانوا متحصنين في حصونهم. أما الغزوات الأخرى فليس منها معركة واحدة إلا وحُسمت في بضع ساعات. كذلك كانت حال السرايا التي بعثها الرسول ﷺ، إذ كانت ترجع بعد إحراز فتح سريع محيّر. وهذا أمر مذهل فعلاً، فإن الرسول ﷺ لم يخض معركة أو معركتين، بل اشترك في أكثر من عشرين، لكن كلها انتهت في بضع ساعات، بل في دقائق. كانت معركة بدر كبيرة ومصيرية، لكنها انتهت بسرعة. يقول الصحابي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: كان على يميني وشمالي صبيّان أنصاريان في بدر، فتأسفت وقلت في نفسي لن أستطيع اليوم شفاء غليلي أثناء القتال، لأن معي صبيين أنصاريين غريرين لا يتجاوز سنهما ١٥ سنة، لو كان معي جنود خبراء بفن القتال لحملتُ على العدو دونما خوف واثقا أن هناك من يحميني من ورائي. وبينما أنا في هذه الأفكار إذ غمزني الذي على يميني، فتوجهت إليه، فهمس في أذني: يا عمّ، مَن هو أبو جهل الذي آذى رسول الله ﷺ أذى شديدا، فإني أريد أن أنتقم منه اليوم؟ وقبل أن أجيب على سؤاله غمزني الصبي الذي على يساري وهمس في أذني: يا عم، من هو أبو جهل الذي كان يؤذي النبي ﷺ فإني أريد أن أنتقم منه؟ ويقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: تحيرت من سؤالهما إذ لم أتصور وأنا مقاتل محنّك أني أقدر على قتل أبي جهل، فلمت نفسي وقلت: كم

كان تفكيري خاطئًا عن الصبيين! فأشرتُ لهما بيدي إلى قلب جيش العدو وقلت: ذلك القائد الذي يحرسه اثنان بسيوفهما هو أبو جهل. ولم أكمل كلامي حتى انقضّ عليه الصبيان انقضاضَ العقاب على العصفور، وألقوه جريحًا على الأرض قبل أن يرفع الحارسان سيفيهما، مع أن أحدهما كان ابن أبي جهل. وحيث إن أبا جهل كان قائد الجيش فقتلُه يعني انتهاء الحرب في الحقيقة، لأن المعركة التي استمرت بعدها كانت دفاعية فقط، وهي أيضا انتهت في بضع ساعات. (البخاري: كتاب الجهاد والسير)

أما في غزوة أحد، فلا شك أن العدو استطاع إلحاق ضرر بالمسلمين نتيجة خطئهم، ولكن كان ذلك بعد أن انتصروا عليه في ساعتين، مع أننا نجد أن الحروب في زمن أبي بكر وعمر كانت تستمر أسبوعين وحتى عشرين يوما، مع أنها لم تكن ضد عدو متحصن في حصونه، بل كانت في ساحات مفتوحة. أما في زمن الرسول ﷺ فكان الألف أو الألفان أو العشرة الآلاف من الأعداء يأتون لمحاربة بضع مئات من المسلمين، ومع ذلك كانت المعركة تنتهي في بضع ساعات. ليس في تاريخ معارك الرسول ﷺ مثال واحد قال فيه للعدو: يجب أن نُنهي القتال الآن لأن المساء قد حل وسنستأنفه صباحا، كلا، بل كانت معاركه ﷺ تنتهي خلال ساعات أو دقائق، مع أنه ﷺ خاض ٢٧ غزوة وبعث ٣٨ سرية في مختلف المناسبات. أما بعده ﷺ فكان الصحابة يقاتلون العدو لأسبوعين أو عشرين يوما، وعندها كانوا ينتصرون عليه. فالواقع أن الله تعالى قد بين في قوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أن المسلمين سوف يكتسبون خبرة قتالية غير عادية، فيقتحمون صفوف العدو في الصباح وينهون المعركة وهم لا يزالون في الصباح.

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

لَكَنُودٌ: "الكَنود: الكَفور، يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ الكافرُ؛ اللوّامُ لربه." (الأقرب)

ذلك أن من عادة البعض أنهم يسيئون إلى الله تعالى على كل صغيرة وكبيرة قائلين: ماذا أعطانا الله؟ وأي منة أنعمَها علينا؟ لقد أعطى الأثرياءَ كل شيء، فلماذا نشكره؟ فإذا كان فقيرًا قال: لماذا أصلي؟ فَلْيُصَلِّ الأثرياء، وإذا كان ثريًا قال: ليس عندي الصحة كالتي أعطاها اللهُ الفقيرَ، فلماذا أشكر ربي؟ فالفقير والغني كلاهما يسيئان إلى الله تعالى قائليْن: ماذا منَّ به عليّ حتى أعبده؟

ومن معاني الكنود: "البخيلُ؛ العاصي؛ الأرضُ لا تنبت شيئا، يقال: هذه أرضٌ كَنودٌ؛ مَن يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده." (الأقرب)

معنى ذلك أن هذا الأخير لئيمٌ، إذ يأكل وحده ولا يشرك معه أحدا، مع أنه مهما كان المرء فقيرًا إذا أكل دعا غيره للأكل، أما هذا فهو يأكل وحده ولا يحبّ إشراك غيره في الأكل. ثم هو بخيل إذ يملك المال، ولكن لا يحب أن يعطي غيره، بل هو جبان أيضًا، إذ يتظاهر بشجاعته أمام العبيد والنساء فقط حيث يضربهم قائلا: سوف أكسر أسنانكم، أما إذا واجه قويًا أحنى رأسه أمامه. وهذا المعنى الأخير قد ورد في الحديث أيضا: فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، قال: الكنود الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رِفْدَه. (ابن كثير)

بيد أن قوله ﷺ "الكنود: الذي يأكل وحده" له معانٍ أخرى أيضا، وهو أنه متكبّر، لأن المتكبر أيضا لا يريد أن يشرك غيره في طعامه احتقارا له. كذلك يمكن أن يفسر قول الرسول ﷺ هذا أنه لا يدعو إلى مآدبه إلا من هم من طبقته ودرجته، فتقتصر مآدبه على عِلْية القوم وكبارهم، أما عامة الناس الذين أكثرهم فقراء مساكين فلا يسألهم ولا يعبأ بهم.

وهذا المعنى ينطبق على الكافرين كل الانطباق، إذ كان من عادة العرب أن يَدْعوا إلى مآدبهم عِلية القوم وأثرياءهم، ولكنهم ما كانوا يدعون الفقراء إليها، وإنْ كانوا يوزّعون عليهم الطعام على حدة. والآية التي تلتها أيضا تدعم هذا المعنى، إذ يقول الله فيها: إذا كان يشقّ على الكافرين أن يأكل معهم الفقراء فكان بوسعهم أن يساعدوهم ببعض المال، لكنهم لا يفعلون ذلك.

ثم ورد عن معنى الكنود: "وفي "التعريفات": الكنود هو الذي يعدّ المصائب وينسى المواهب" (الأقرب).. أي أنه يتذكر أنه ذهب مرة إلى بعض أصدقائه وسأله شيئا فلم يعطه، لكنه ينسى أنه قد أعطاه مئات العطايا في مناسبات أخرى.

التفسير: الإنسان هنا لا يعني كل إنسان، بل المراد منه الجمعُ المشار إليه في قوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.. أي أن المسلمين سيشنون الهجوم على هؤلاء القوم الذين يكفرون بربهم ولا يطيعون أوامره من ناحية، ومن ناحية أخرى يكفرون بنِعَمه ولا يُقدِّرون مننه حق القدر. لقد مَنَّ الله عليهم إذ جعل رزقهم يأتيهم من كل طرف وصوب من وراء هذه الصحراء، ولكنهم بدلاً من أن يشكروه على منّته ويسارعوا إلى تصديق رسالته والعمل بها، يكفرون بكلامه، ويمتنعون عن إطعام الفقراء ويصبّون على العبيد جبال الظلم والمصائب. لقد سبق أن تحدثت السور السابقة أيضًا أن أهل مكة لا يطعمون الفقراء ولا يتصدقون ولا يتفقدون اليتامى والمساكين، بل يهدرون أموالهم على الملذات، أما الآن فقد بين الله تعالى بقوله ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أنهم يدَّعون أنهم شجعان أبطال، لكنهم لا يبرحون يضربون العبيد، مما يعني أنهم يجمعون الجبن إلى دناءتهم، فبدلاً من أن يواجهوا قويًا يصبّون جام غضبهم على الضعيف، فإذا وقع في أيديهم بلال وأمثاله من العبيد الضعفاء الذين ليس وراءهم قبيلة تساندهم ضربوهم وآذوهم، ولكن يخافون القوي، فمثلاً لما أرادوا ضرب أبي ذر الغفاري وقيل لهم إنه من قبيلة غفار الذين تمر قوافلكم التجارية من أرضهم، وسوف يقطعون عليكم طريقكم لو علموا أنكم آذيتموه،

طارت حواسهم وخافوا أن ينقطع رزقهم فتركوا أبا ذر. (البخاري: كتاب المناقب)

فكأن الله تعالى يقول: هل هؤلاء أناس؟ كلا، إنهم قوم لئام متكبرون بخلاء جبناء، إذا وجدوا ضعيفًا ظلموه، وإذا وجدوا فقيرًا لم يطعموه، وإذا كان عندهم مال لم ينفقوه، فكيف يطيق الله تعالى أن يكون الحُكم بأيديهم. كلا، بل إنهم يستحقون العقاب، لذلك فها إننا نعلن أن هؤلاء العبيد الذين يضربونهم ويؤذونهم كبرًا، سوف نأتي بهم على متون الجياد، لنُرِيَهم أنهم ليسوا من الشجاعة والبطولة في شيء، إنما تنحصر شجاعتهم في أن يضربوا عبدا، أو يقتلوا امرأة بطعنها في فرجها، أو يقتلوا مسلما بربط رجليه في رجلي بعيرين يسيران باتجاهين معاكسين لينشق قطعتين، أو أن يلقوا حجرا ساخنا كبيرا على صدر مسلم، أو يجرّوه في شوارع مكة على الحجارة المدببة ليدموه، ولكنا نعلن أنه سيأتي يوم نُري فيه هذا الإنسان الكنود ما هي الشجاعة ومن هو الشجاع؟

هذه السورة مكية و لم يُرِد الله تعالى فيها إثارة حفيظة أعداء الإسلام من دون داعٍ، فلذلك عدَّد عليهم مساوئهم باستعمال كلمات ذات معنيين حتى يتبادر إلى أذهانهم المعنى غيرُ المقصود هنا، فلا تثور ثوائرهم، وإلا فالحق أن قوله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ إشارةٌ إلى أهل مكة الكافرين، والمعنى أنهم ناكرون جدا للجميل، إذ ينكرون نِعَمَ الله تعالى ويظلمون الفقراء ولا يطعمون المساكين ويعتبرون الصدقة عبثًا، فلا يستحقّون عون الله تعالى، ولذلك سنأتي بالمسلمين لعقابهم ليعلموا أن عاقبة السيئات وخيمة جدا.

وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٨﴾

التفسير: يقول الله تعالى إنهم متورِّطون في المساوئ، ثم يفتخرون بها. فكم هو مخجل أن يضرب الإنسان عبدًا أو امرأة، ولكنهم يعتبرون ضربهما مفخرة. لو كان الإنسان يضرب ولدًا أو عبدًا بشدة، فنبَّهه غيره إلى خطئه، لاعتذر ألف معذرة

لتبرير فعله الدنيء هذا، وذلك إذا كان فيه ذرة من الحياء والخجل، أما هؤلاء فلا يبدون ندمًا ولا خجلاً على جرائمهم، بل يفتخرون بها حتى يقول بعضهم لبعض: ضربت اليوم العبد الفلاني ضربا مبرحًا، وسحبت فلانًا على الحجارة سحبًا، وأدميت فلانًا، مما يعني أن هذا الشخص النجس الدنيء يفتخر بفعله الدنيء. كما أنه لا يطعم الفقراء، وإذا قيل له: لماذا لا تطعمهم قال: ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾(البلد:٧).. أي أنفقتُ أموالاً طائلة. فيرد الله عليه: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾(البلد:٨).. أي هل يظن هذا أن لا أحد يراقبه أو أن الناس يجهلون أنه لم ينفق هذه الأموال الطائلة إلا رياء وسمعةً، وليس بدافع مصلحة الأمة أو مساعدة للفقراء. لا شك أنه نَحَرَ في يوم واحد إبِلاً كثيرة، ولكن ليس ليُطعِم الجياع، بل على سبيل الرياء. أو إذا كان عنده مال لم يطعم منه أهل الفاقة. فمن ناحية إنه مصاب بعيوب شتى، ومن ناحية أخرى ﴿إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.. أي أنه يتفاخر بعيوبه ومساوئه، فإذا قيل له: ساعِد الفقراء بمالك، وتصدقْ به على المساكين، قال: مساعدتهم تخالف مشيئة الله، كما قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(يس:٤٨).. أي لماذا تطعمون أهل الفاقة والجوع، فإن الله يريد أن يَبقوا جياعًا. إذًا، بلغ بهم اللؤم وقلة الحياء أنهم لا يُطعمون الفقراء وذوي الحاجة، ثم يتفاخرون بذلك قائلين: ما دُمْنا نعمل بحسب مشيئة الله تعالى فلماذا تلوموننا وتتهموننا؟

وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

الخير: وِجْدانُ الشيء على كمالاته اللائقة؛ المالُ مطلقًا؛ الخيلُ؛ الكثيرُ الخيرِ. (الأقرب)

شديد: الشديد: الشجاعُ؛ البخيلُ؛ القويُ؛ الرفيعُ. ويقال هو شديد الخُنْــزُوانة: كناية عن التكبر والعظمة. وجمعُ الشديد: الشِّداد والأشدّاء. (الأقرب)

التفسير: ونظرًا إلى المعاني المختلفة للخير وللشديد، يمكن تفسير هذه الآية وفق المفاهيم التالية:

أولاً: أن الإنسان المذكور شديدٌ في حب المال.. أي يحبه حُبًّا جمًّا.

ثانيًا: أنه شجاع في حب المال.. أي ليس عنده روح التضحية من أجل أمته وقومه ودينه، فلا ينفق ماله في سبيل الله تعالى ولا في سبيل أمته. إذا كانت هناك فرصةً لجلب المال، أصبح شجاعا، أو إذا تعرض ماله للنهب والسلب دافع عنه دفاعًا مستميتا ولربما ضحى بحياته، أما إذا تعرّضَ دينه للإساءة أو تعرضتْ حرية أمته للخطر فلا تثور غيرته، بل يختفي في بيته جبنًا.

ثالثا: أنه بسبب حُبِّ الخير لَشديدٌ. ذلك أن للبخل أسبابًا عديدة، فأحيانًا يبخل المرء لفقره، فمثلا هناك شخص يأتيه سائل ولكن ليس عنده إلا رغيف واحد احتفظ به لأطفاله النيام، فلا يعطيه الرغيف، لأنه يعرف أنه ليس عندهم إلا هذا الخبز، فلا شك أنه قد بخل، لكن ليس لأن عنده مالاً كافيًا، بل لأن فقره المدقع منعه من الإنفاق. وأحيانا يبخل الإنسان بماله لأن الهدف الذي من أجله يطالَب بإنفاق ماله لا يكون مناسبًا في رأيه، ومهما أنفق الآخرون في سبيل ذلك الهدف إلا أنه لا ينفق، ومهما عيَّره الآخرون بالبخل فإنه يرد عليهم: لن أعطيكم شيئا مهما عيَّرتموني، لأنني لا أرى الهدف الذي تنفقون من أجله مناسبا. أما هذا الشخص الكنود، فيملك أكثر من حاجته، كما ليس الهدف سيئا حتى يتردد في الإنفاق، إذ لا يُدعى للإنفاق على رقص البغايا أو إطلاق الألعاب النارية وما شابه ذلك، إنما يدعى للإنفاق من أجل النهوض بفقراء القوم ومساكينهم وأيتامهم، فثبت أن سبب حبه للمال البخل، مع أنه حبٌّ لا معنى له ولا هدف. الواضح أن حب المال ليس هدفًا في ذاته، بل هو وسيلة لإنجاز أهداف أخرى، ولكنه يمسك ماله بسبب هذا الحب للمال الذي لا قيمة له. لقد بلغ به الحمق أنه يجعل الوسيلة هدفًا وينسى الهدف الذي جُعلت له تلك الوسيلة. إن المال وسيلة لسدّ الحوائج، لكن هذا الأحمق يتخذ الشيء الذي ليس مقصودًا بِحَدّ ذاته هدفًا، ويغضّ الطرف

عن الهدف الذي يُنفَق المال من أجله. شأنه شأن مَن يكون عنده ثوب ولكنه يمشي عريانا، وإذا سألته: لماذا تمشي عريانًا قال إني أخاف أن تبلى ثيابي. هذا هو حال بعض سكان بلادنا للأسف، فلو خرجت إلى قرية في الصباح للتَنَزُّهِ لوجدت بعض الفلاحين يمشي حافيًا على الحجارة والأشواك، حاملاً حذاءه في يده، أو معلقًا إياه على عصا فوق كتفه، مع أن الحذاء يُلبس ليحمي الإنسان من الشوك والحصى والعشب، وليس لأن يحمله الإنسان ويمشي حافيًا على الأشواك والحجارة. لكن الفلاح يفعل ذلك فقرًا إذ ليس عنده غير هذا الحذاء، ومن واجبه أن يحافظ عليه لأنه لو تمزّق وتلف وهو في طريقه إلى بيت ابنته مثلاً، ووصل هنالك حافيا، لعيّرها الناس قائلين: ألا يستطيع أبوك شراء حذاء له؟ هذا ما يدفعه لنـــزع حذائه والاحتفاظ به بهذه الطريقة. ولا شك أن المرء يترحم على فقر هؤلاء وبؤسهم في بلادنا. وأيًّا كان السبب فإن المشهد الذي نراه هو أنهم جعلوا الوسيلة هدفًا، ونسوا الهدف الذي تُتّخذ له الوسيلة. إن الحذاء وسيلة لوقاية القدم، لكن الفلاح يجرح قدمه ويحفظ حذاءه. ليس المال إلا لينتفع الإنسان بإنفاقه على مصلحة ذاتية أو جماعية، ولكن هذا الإنسان الكنود لا ينتفع به مع أنه يجب أن ينفق ماله لأي غرض في كل حال، فإذا لم يكن يريد أن ينفقه في سبيل الدين ابتغاء مرضاة الله تعالى فلينفقه لمصلحة الأمة أو لمصلحته الشخصية، فلينشئْ به مصنع نسيج مثلاً، ليجد الناس عملا، أو يجدوا ثيابا رخيصة، أو لينشئْ به مطحنة أو أية صناعة أو حرفة أو تجارة من أجل النهوض باليتامى والمساكين، أو يفتح مدارس لتعليم الأطفال. هناك مئات المجالات للإنفاق للنهوض بالأمة، وللمنفعة الشخصية أيضا، لكنه يقفل على ماله في الخَزْنة، ولا ينفقه في سبيل الله ولا لمصلحة القوم، والنتيجة أن ماله لا يزيد، بل ينقص شيئا فشيئا. لقد قال أحد الصوفية: أَنفِقْ المال ليرجعْ إليك، ولا تمسكْه كيلا يكون عارًا عليك. إن جميع الشعوب التي تنفق الأموال فإنها تنميها، لكن الذي يمسك بماله يقلّ ماله شيئا فشيئا، ولذلك يقول الله تعالى إذا كان هؤلاء القوم قد نسوا الله تعالى ويرون الإنفاق ابتغاء مرضاته عبثًا، فكان ينبغي عليهم –على الأقل– أن ينفقوا أموالهم من أجل أمتهم، لكنهم يغضّون الطرف عن

الأهداف التي تُحفظ الأموال من أجلها وتُكتسب، ويريدون أن يحتفظوا بها مع أن المال ليس مقصودا بحد ذاته، بل هو وسيلة لتحقيق هدف آخر.

وقد فسر الصوفية هذه الآيات بتفسير آخر، وقالوا المراد من ﴿العاديات﴾ نفوس السالكين المجتهدة السائرة في سبيل الله التي تعدو مِن شدة سيرها ورياضتها وجدّها في سعيها للكمالات الروحانية كالخيل العادية، وتتنفس الصعداء من بُرحاء الشوق. (تفسير ابن عربي)

فكلمة (الْعَادِيَات) تشير إلى أنهم يظلون ساعين إلى الخيرات والحسنات، فلا يفرغون من عمل حتى يبدأوا الآخر ثم الثالث ثم الرابع وهكذا دواليك، فتجدهم يصلّون، ثم يبدأون في خدمة الفقراء، وإذا فرغوا منه باشروا تعليم الآخرين، ثم انهمكوا في حسنة أخرى، فيقضون حياتهم كأنهم في سباق مع الآخرين في فعل الخيرات. فقوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ إشارة إلى أن السالكين يتبعون كل طريقة للتقرب إلى الله تعالى، فلا يبرحون يقومون بأعمال الخير واحدا تلو الآخر. أما قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ فإشارة إلى أنهم لا يسارعون إلى الخيرات ولا يقومون بحسنة تلو الحسنة فحسب، بل تظل أذهانهم أيضا تعمل باستمرار، حيث يقدحون أفكارهم بعتبة الملأ الأعلى.. أي أنهم لا يبرحون يتدبرون ويتفكرون في كلام الله تعالى (أي الشريعة) من ناحية، وفي القوانين الطبيعية من ناحية أخرى ليتوصلوا إلى استنتاجات جديدة، فتتولد بضربِهم أفكارَهم بأحكام الشريعة وقوانين الطبيعة أنوارٌ جديدة ومعارف مبتكرة ومفاهيم بديعة وحِكم رائعة، كما تتولّد النار بالضرب على الزند، وبظهور هذه الأنوار يطلع الصبح المشار إليه في قوله تعالى ﴿فالمُغيرات صُبْحًا﴾. وعندما يطلع بجهودهم ومساعيهم الصبح.. أي الأنوار السماوية.. فيطّلعون على عيوبهم وعيوب قومهم التي كانت خافية عنهم قبل طلوع هذه الأنوار السماوية، مثلما تظهر للإنسان عند طلوع الصبح شتّى الأشياء التي كانت خفية في ظلمة الليل، فقد يكون على وجه الإنسان وسخ، وقد تكون الأشياء مبعثرة حوله هنا وهناك، ولكنه بسبب ظلمة الليل لا يدري ما بوجهه من عيب وما حوله من أشياء مبعثرة، ولكن عندما يطلع الصبح ينكشف له كل شيء،

وتتميز له الألوان، فيميز بين الأسود والأبيض والخير والشر. كذلك فإن السالك عندما يبلغ هذا المقام، يطّلع -في ضوء الصبح المنجلي بظهور الأنوار السماوية- على عيوبه وعيوب قومه التي كانت خفية عليه قبل ظهور هذه الأنوار. بتعبير آخر، إن عيوبه وعيوب قومه التي كانت خفية عليه من قبل لعدم تيسر العلم الكامل له، تنكشف عليه بانجلاء هذا الصبح. وعندها يصير هذا الإنسان مُغيرًا.. أي يشن على عيوبه وعيوب قومه الهجوم، ويقوم بتطهير نفسه ونفوس قومه.

أما قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فيعني أنهم لا يبرحون يرفعون أصواتهم عند تجلّي هذه الأنوار السماوية، بمعنى أنهم عندما يُغيرون على تقاليدهم وأهوائهم وعيوبهم ساعين لإصلاح أنفسهم وقومهم، فإنهم يدركون جيدا أنهم لن ينجحوا في مقصدهم بجهودهم فقط، وأنهم مهما سعوا لإصلاح الأحوال فسوف تبقى جهودهم ناقصة، وسوف تبقى في أنفسهم وفي قومهم كثير من النقائص، وهناك طريق واحد لنجاحهم، وهو أن يدعوا الله تعالى بأن يعينهم في هذه المهمة ويبارك في جهودهم المتواضعة فضلاً منه ورحمة، فيرفعون أصواتهم بالبكاء والابتهال أمام الله تعالى، لتجتذب أدعيتهم وابتهالاتهم فضل الله. يقولون: اللهم انصرْنا ودَمِّرْ أعداءنا الذين يسعون ليُبعِدونا عن سبيل حبك وقربك، وعندما يجتمع الأمران.. أي جهودهم وابتهالهم لإزالة عيوبهم وعيوب قومهم، يحالفهم النجاح فيُدخَلون في جماعة "أَعْلَى عِلّيين". هذا هو معنى قوله تعالى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.. أي ينضمون إلى جمعٍ يستحق أن يسمى الجماعة. والتنوين في ﴿جمع﴾ للتعظيم، أي أنهم ينضمون إلى جماعة تستحق وحدها أن تسمى جماعةً، أي جماعة "أعلى عليين". وهكذا يحققون الهدف الذي خُلقوا من أجله في الدنيا.

هناك حادث لطيف لأحد الصوفية يبين ما ذكرتُه من أن السالكين يبذلون جهدهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يبتهلون إلى الله تعالى بالدعاء ليعينهم على محاربة الشيطان. يقال أن شخصًا حضر عند رجل صالح ليتعلم على يده وسائل التصوف ويتمتع بصحبته ويجاهد لصفاء روحه، فمكث عنده فترة طويلة أكمل فيها تعليمه، ثم أراد العودة إلى قومه لإصلاحهم، وقال لشيخه: سيدي، أرجو أن

تنصحني وأن توصيني وصية أخيرة. فقال له الرجل الصالح: هل الشيطان موجود في بلدكم؟ فاحتار التلميذ بسؤاله، وقال: الشيطان موجود في كل مكان. قال: إذا بطش بك الشيطان وأعاق طريقك إلى قرب الله تعالى فماذا تفعل عندها؟ لقد تعلّمتَ العلم، ولكن هل تعلَم أن الشيطان بالمرصاد للإنسان كل حين، ويبذل كل ما في وسعه لإغوائه؟ فإذا بدأتَ بالعبادات وسعيتَ جاهدا لتنال مقامًا من قرب الله تعالى، فسوف يأخذ الشيطان برجلك لإغوائك، فما ستفعل عندها؟ قال: سأحاربه بكل ما أوتيت من قوة. قال: حسنًا، لنفترضْ أنك حاربتَ الشيطان وانتصرت عليه، واستأنفت سيرك لتصل إلى الله تعالى وتصلح نفسك، ولكن الشيطان بطش بك مرة أخرى، فماذا تفعل؟ إن الشيطان لا يموت حتى تظن أنك ستقتله وتصير في مأمن منه. إن كل ما تستطعيه هو أن تهاجمه لتأمن منه مؤقتا، لكنك لن تتخلص من خطر هجومه ثانية، فإذا دفعتَه عنك ثانية سيهاجمك مرة ثالثة. صحيح أنك ستحاربه وتتخلص منه، ولكنه إذا لم يتركك رغم دفعه عنك ألف مرة، فماذا ستفعل إذن؟ قال: سأحاربه مرة أخرى. قال الرجل الصالح: صحيح أنك ستدافع وتهزم الشيطان ثم تعود إلى عملك، فيأتيك الشيطان مرة بعد مرة، فما الحل عندها؟ قال التلميذ في حيرة: سوف أحاربه. قال: إذا أنفذتَ عمرك كله في محاربة الشيطان فمتى تصل إلى الله؟

ثم قال لتلميذه: لو ذهبتَ إلى بيت صديق لك لزيارته ووجدتَ على بابه كلبًا، وكلما هممت بالدخول أتى الكلب وعضَّك من قدمك، فماذا تفعل؟ قال سأقاومه وسأضربه بعصا أو بحجر. قال: هَبْ أن الكلب فرّ حين ضربته بالعصا أو بالحجر، ولكنك حين أردت أن تدخل في الدار، أتاك من ورائك وأخذك من رجلك، لأن عليه حراسة البيت فلن يدَعك تدخل، فماذا تفعل إذن؟ قال سأضربه أيضا وأحاول إبعاده لأدخل الدار. قال: لنفترضْ أن الكلب هرب ثانيةً وعندما حاولت أن تدخل الدار للمرة الثالثة عاد وأخذك من رجلك، فماذا تفعل؟ قال: سوف أنادي صديقي وأخبره أن كلبه لا يدعني أدخل بيته، فليمنعْه. فقال الرجل الصالح: هذا هو علاج الشيطان. إن الشيطان كلب الله، فكلما أخذ برجلك ومنعك من التقرب إليه

تعالى، فعليك أن تنادي الله ﷻ قائلا: رب، أريد وصالك، ولكن كلبك هذا يحول دوني، فادفعْه عني. هذا هو الطريق الذي تستطيع به منع الشيطان من الهجوم عليك، وإلا فمهما منعتَه من طريقك فلن يتركك، بل سيهاجمك مرة بعد أخرى.

فقوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ إشارة إلى أن السالكين يقاومون الشيطان ويغيرون عليه ويتخذون كل تدبير ويسعون بكل ما في وسعهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يشرعون في الدعاء ويقولون: ربّنا، لقد أوشكْنا على الموت، فأنقذْنا بفضلك وانصُرْنا. وإذا اجتمع هذان الأمران تيسّر لهم لقاء الله تعالى. فكما أن الرجل الصالح قال لتلميذه إنك إذا أردت لقاء صديقك فقُلْ له أن يمسك كلبه، كذلك إذا بذلتم جهدكم من جهة ومن جهة أخرى دعوتم الله تعالى بتضرع وخشوع وتواضع، أُدخِلتم في زمرة قوم يجلسون في المأدبة الملكية وورثتم أفضال الله ونِعَمَه.

باختصار، يرى الصوفية أن قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ إشارة إلى البكاء والابتهال، وقد سبق أن ذكرنا أن النقع يعني الصوت أيضًا.

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

بُعْثِرَ: بَعْثَرَ: نظَر وفتَّش. وبَعْثرَ الشيءَ: فرَّقه وبدَّده؛ استخرجَه فكشفه وأثار ما فيه. وبعثرَ متاعَه: قلَب بعضَه على بعض. (الأقرب)

التفسير: الاستفهام في قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ تقريري، واجتماع الاستفهام مع (لا) هنا يعني اجتماع نفيَين، وبالتالي صار المعنى إيجابيا، والمراد أنه يعلم بالتأكيد.

والاستفهام يفيد معاني عديدة منها التهديد والوعيد، وهو هنا بمعنى التهديد. والمعنى: ألا يعلم أنني خبير، أي عليه أن يعود إلى صوابه ويدرك أنه إذا لم يرتدع عن أعماله ستكون النتيجة وخيمة؟ في لغتنا – الأردية – أيضا نقول: ألا تعلم من أنا؟ والمراد أنك تعلم أنني قادر على عقابك، فعليك أن تخافني، وأحذرك أنك إذا لم

ترتدع عن تصرّفك فستكون النتيجة وخيمة، وأعاقبك عقابا شديدا. فمعنى الآية: ألا يعلمون أن الله خبير؟ وما داموا يعلمون فلماذا لا يرتدعون عن شرورهم؟ وها نحن نحذرهم أن يعودوا إلى صوابهم، لأن محاربة العليم الخبير لا تؤدي إلى خير. إذا لم يكن هناك داعٍ لأن يخاف فاعلُ الخير من الله العليم الخبير، فهناك ألفُ داع لأن يخاف الشريرُ منه تعالى.

أما قوله تعالى ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ فإن (ما) هنا إشارةٌ إلى الناس ومآلهم. وقد سبق أن بينتُ أنه إذا أُريد الإشارة إلى صفةٍ للإنسان أشاروا إليها بـــ (ما) في بعض الأحيان، سواء كانت هذه الصفة حسنة أو سيئة. فمثال الإشارة إلى الصفة الحسنة بـــ (ما) هو قوله تعالى عن السيدة مريم ﴿والله أعلم بما وَضَعَتْ﴾، أما مثال الإشارة إلى الصفة السيئة بـــ (ما) فهذه الآية قيد التفسير، حيث أشير بها إلى صفةٍ لذوي العقول بأنهم أصبحوا كشيء متعطل لا حراك به.

الحقيقة أنه لا يسمى إنسانًا إلا من كان به حركة وطموح للرقي ورغبة للتغير الحسن، ودلت أعماله على حياته. ولكن لن يسمى حيًّا مَن يفتقر إلى آثار الحياة هذه، والذي تموت طموحاته، وتنهار همته، وتبلى أفكاره، ويفقد قلبه أي أمل وحماس للتقدم، ويفتقر إلى القوة العملية، وتصبح أعماله بلا حيوية ولا قيمة. كلا، إنما الحي من توجد فيه آثار الحياة، أما الذي يفقد آثار الحياة سواء كان فردًا أو أمة فليس بحي أبدا.

والمراد من ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ هم أهل مكة، حيث بين الله تعالى أن هؤلاء القوم يفتقرون إلى كل ما يدل على حياة قوم. لا شك أنهم أحياءٌ يمشون على الأرض ظاهرا، لكنهم أموات في الحقيقة؛ إذ يفتقرون إلى أي طموح للتقدم والرقي، وحماس للعمل، ورغبة في العلم، وإحساس للتغير الحسن، بل قد ماتوا ودخلوا في القبور. ذلك أن الشيء الميت المرميّ على الأرض يمكن أن يحركه غيره، فمثلا إن الحجارة المرمية على الأرض شيء ميّت ولكن إذا حركها الصغير تحركت وتدحرجت بعيدا، ولكن الشيء الذي يكون مدفونا في القبر لا يستطيع تحريكه أحد. ثم هناك كثير من الأشياء التي تكون ميتة، لكن يمكن أن ينتفع بها الناس، فإن

الدلو مثلاً شيء ميت، لكنك إذا ألقيته في البئر تحرك وأخرج لك الماء. كذلك البَكَرة التي تكون على البئر شيء ميت، لكنك إذا حرّكتها تحرّكت ونفعتك، أما الشيء الذي يكون في القبر فلا يتحرك ولا يستطيع غيره تحريكه. فقوله تعالى ﴿ما في القبور﴾ إشارة إلى موتهم الشامل، فلا يتحركون بأنفسهم ولا يستطيع غيرهم تحريكهم، إذ هم مدفونون تحت التراب.

باختصار، يخبر الله تعالى هنا أن أهل مكة قوم لا يوجد فيهم صحوة من أي نوع، كما ليسوا على صلة بأمة ذات صحوة. ذلك أن الشعب الذي لا يكون عنده صحوة إذا كان على اتصال بأمة ذات صحوة، تغيّرَ وتحسّنَ. خذوا مثلا أهل الهند، فهم أمة ميتة، ولكنهم على صلة بأمة حية.. أعني الإنجليز، فلذلك يتمكن الإنجليز دائمًا أن يعبّئوا من أهلها مليونا أو مليونين من الجنود عند الحروب. ثم رغم أن الإنجليز قد جلبوا معظم خيرات الهند وثرواتها إلى بلادهم، فمع ذلك لا تبرح الدنيا تنظر إلى الهند بطمعٍ بسبب تجارتها المزدهرة، وليس ذلك إلا لأنها على صلة بأمة حيّة. فرغم أن الإنجليز قد ذهبوا بثروات الهند، إلا أنك تجد آثار الصحوة في أهلها بحكم اتصالهم بأمة حيّة. هناك سبيلان للحياة، إما أن يكون الشعب بنفسه حيًّا، أو يكون على صلة بشعب حيّ آخر، ولكن الأمة التي تكون مدفونة في القبر، فكيف السبيل لرقيها وتقدمها؟ فكون أهل مكة مقبورين يعني أن لا حياة فيهم، سواء الحياة الذاتية أو الحياة الإضافية التي تكون من خلال الاتصال بأمة أخرى.

فقوله تعالى ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ يعني أن هذا الشعب المتردي المفتقر إلى الحياة والمحروم من أي صلة بأمة قوية.. لا يعلم أنه سيأتي عليه زمان نقلّبه ونحرّكه وننفخ فيه الحياة ثانية.

ومن العجيب أنه قد حصلت في أهل مكة الذين كانوا أمواتا طبقًا لقوله تعالى ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ صحوةٌ محيرة بسبب الإسلام، شأن المغناطيس الذي يجذب قطعة الحديد إليه. فقد نُفخت الحياة في عظامهم البالية نتيجة معارضتهم للنبي ﷺ، وتولّدت فيهم صحوة لم يسبق لها نظير في تاريخهم السابق. لم يكن الشعب العربي

ميتًا على الدوام، بل قد أتى عليه زمن رقيّ، ولكن لا يثبت من أي تاريخ أنه ظهرت فيهم قبل الإسلام آثار الحياة كالتي ظهرت بعد ظهوره. ليس في تاريخ العرب كلهم مثال واحد لخروج أهل مكة من بيوتهم بقصد الهجوم على قوم آخرين قبل ظهور الإسلام، لكن الإسلام هيّج عظام هذا الشعب الميت وملأ قلوبهم بالحماس. فكما أن السراج إذا أوشك على الانطفاء لنفاد زيته ارتفعت شعلته للمرة الأخيرة وانطفأت، كذلك عندما رأى هؤلاء القوم الموتَ في مواجهة الإسلام استجمعوا قواهم في المرة الأخيرة وخرجوا من ديارهم مسافة ٣٠٠ ميل ليصطدموا بالإسلام، فشنوا الغارات على أهله في معارك الأحزاب وأحد وبدر الأولى والثانية. هذه أربع معارك خاضوها بعيدا عن ديارهم مع أنه لا يثبت من أي تاريخ أنهم هاجموا قومًا خارج مكة بهذه المسافة. لذلك يقول الله تعالى هنا ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.. أي لا شك أنهم أموات في القبور، ولكننا سنُخرجهم من قبورهم في يوم من الأيام. وبالفعل تحرّكَ رفاتُ أهل مكة بالحياة كالشيء الذي يوصل بالتيار الكهربائي فيتحرك ويقفز. لا شك أن الحياة عادت إليهم بسبب معارضة الإسلام، ولكنها عادت على كل حال نتيجة احتكاكهم بالإسلام والمسلمين، وليس بدون ذلك.

وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١١﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى من قبل أن هؤلاء القوم الذين يَبْدون اليوم كالأموات سوف يجري دم الحياة في عروقهم ثانيةً لحماسهم في معارضة الإسلام ومحمد ﷺ، فيشنون غارة بعد غارة للقضاء على المسلمين، أما في هذه الآية فبين ﷻ أننا سوف نستخرج ما في قلوب هؤلاء القوم.. أي سوف نفضحهم أمام العالم بكشف ما في قلوبهم من خبث ونجاسة وشرّ بسبب بُعدهم عن النبوة ووقوعهم في الوثنية، لنخبرهم كم هؤلاء القوم سيئون في باطنهم.

كان أهل مكة سدنة الكعبة، يستقبلون الوافدين إليها بكلام معسول متكلّف. فكلما جاء أحد إلى مكة رحبوا به بحفاوة قائلين: أهلاً بمن جاء ليسجد للات ويضحي لعُزّى ويخر أمام مناة، نحن تحت خدمتك لأداء هذا الواجب. فكان الرجل يظنّ أنهم قوم مهذبون صالحون خادمون لدينهم، إذ يرحبون بنا بحبّ وخُلق عال دون كلل أو ملل. الحق أن باطنهم كان نجسًا، لكنهم كانوا مؤدبين مهذبين في الظاهر فما كان لأحد أن يتوهم أن لا حظ لهم من الأخلاق الحميدة. والحق أن هذا هو حال كل منافق ومخادع؛ فإنه يكون مؤدبًا جدا في الظاهر، لكن باطنه نجس خبيث. عندما ينـــزل الحُجاج من السفينة في الأراضي العربية يجدون هناك قومًا يرحبون بهم بحفاوة كبيرة قائلين: تفضّلْ يا حاج، سوف نتولى حاجاتك كلها، حتى إنهم يتكلمون مع الحجاج بالأردية والبنجابية والكشميرية والبشتو (الأفغانية) أيضًا. ويبلغ بالبعض المكر بحيث إنهم يدخلون في السفينة الراسية ويُنـــزلون أمتعة الحجاج وينادون على الحمّالين: تعالَ، واحملْ متاع فلان وفلان. والعارف بحيلهم يعلم أنهم جاءوا لسلبه، ولكن الذي لا يعرف ذلك يفرح بهذه الحفاوة ويقول في نفسه يبدو أنهم يعرفونه منذ أجيال، فيذهب معهم حامدًا ربه ﷻ. فيُنـــزلونه بإكرام ويقولون للخدم: اغسلْ يده وقدِّم له الطعام والشراب. وعندما يفرغ من الطعام يقدمون له فاتورة طويلة، وعندها يعرف أنهم قد سلبوه. فالمنافق يكون متملِّقًا معسول الكلام، فيعتبره الرائي مؤدّبًا مهذبًا، مع أن قلبه مليء بالخبث والغش والشر. هكذا كان أهل مكة، إذ كان كلامهم معسولا وقلوبهم مليئة بالخبث، ولذلك يقول الله تعالى هنا: سوف نستخرج ما في بواطنهم من سوء وخبث وشر. وبالفعل عندما جاء الإسلام نسوا كلامهم المعسول وأظهروا من خبثهم ما أظهروا. فظلموا العبيد والولدان والنسوان، حتى قتلوا بعضهن بطعنهن بالرماح في فروجهن وشبّوا بهنّ، وكالوا للمسلمين السباب والشتائم وتصرفوا تصرفات خادشة للحياء لا يأتيها مَن فيه ذرة من الشرف والحياء. أي ظلم أكبر من أنهم وجدوا الرسول ﷺ ساجدًا في الصلاة، فألقوا على رأسه كرش بعير؟ ثم ظلوا يضحكون عاليًا وكأنهم قد أحسنوا صنعا. كان أهل مكة سدنة الكعبة.. أي أئمة الدين ورجالاتها بالنسبة

إلى قومهم، ولكن هؤلاء الأئمة ورجال الدين قد بلغوا من الحضيض أن ألقوا على النبي ﷺ كرشًا ملطَّخًا بالنجاسة وهو ساجد في الصلاة، ثم ظلوا يضحكون فرحين. (الطبقات الكبرى لابن سعد: سمية، والبخاري: كتاب الصلاة)

ولذلك يخبرهم الله تعالى: يا أهل مكة، اليوم تتظاهرون بالصلاح أمام الناس، فيظنون أنكم عَبَدةُ اللات والعزى ومناة، المؤمنون بها والساجدون أمامها، سَدَنةُ البيت وحماتُه، الصالحون المقربون عند الله، مع أن الواقع أن بواطنكم مليئة بالخبث والشر والنجاسة، فاعلموا أننا سنقيم محمدا لنخرج ما في أنفسكم من خبث ونجاسة ومساوئ ورذائل لنفضحكم أمام العالم. وبالفعل قد هُتك من خلال النبي ﷺ سترُ أهل مكة وانكشفت للناس أخلاقهم الزائفة، فسبّوا المسلمين وظلموا العبيد والنسوان، وأخرجوهم من ديارهم، ومثّلوا بموتاهم ومضغوا أكبادهم. لقد بلغ بهم نكران الجميل أن جاء بعضهم النبيَّ ﷺ ضيوفا في المدينة، فمرضوا بسبب طقسها غير الملائم، فاهتم النبي ﷺ بعلاجهم بوجه خاص وأمر صحابته أن يسقوهم من لبن النوق، فلما شُفوا بعد أيام قتلوا راعي الإبل وساقوها وفرّوا (البخاري: كتاب الطب). ما أشدَّ تصرُّفَهم خبثًا ولؤمًا! إنهم يأكلون ويشربون ويشفون ثم يسرقون الإبل ويقتلون راعيها. وذلك كما فعل البعض في زمن المسيح الموعود عليه السلام في قاديان أيضًا، حيث كان المعارضون يأتونه ويتمتعون بضيافته، فيأكلون ويشربون ويقيمون عنده، ثم يهربون آخذين معهم الفراش ظانين أنهم قد أضروا الأحمديين ضررا كبيرا. فهؤلاء القوم أيضًا كانوا خبثاء جدًّا حيث شربوا ألبان نياق النبي ﷺ، وعندما شُفوا ساقوها بعد أن قتلوا راعيها.

ومن أمثلة خداعهم وغدرهم أنهم جاءوا مرة إلى الرسول ﷺ وسألوه أن يبعث معهم بعض الدعاة للدعوة والوعظ بين قومهم. فبعث ﷺ معهم سبعين من القراء. فلما وصلوا قريبًا من ديارهم قتلوهم جميعًا، ثم تفاخروا بسبب ذلك (البخاري: كتاب الجهاد)، مع أن هذا لم يضر محمدا ﷺ شيئا، فقد أعطاه الله تعالى حفاظًا آخرين، كل ما حصل هو أنهم افتُضحوا بين الناس نتيجة لؤمهم وغدرهم.

باختصار، كان أهل مكة مصابين بعيوب كثيرة من ظلم وفساد وبخل وكبر وشر ونكران جميل وغدر ولؤم وخسة وبهتان وإيذاء عبيد وولدان ونسوان، ولكن الآخرين ما كانوا يعرفون ذلك، بل كانوا يعتبرونهم صالحين طيبين يخدمون الدين، لكن الله تعالى قال لهم إن الذين تظنونهم صالحين طيبين اليوم، سنفضحهم ونكشف لكم ما فيهم من خبث وسوء وشر. وبالفعل قد افتُضح أهل مكة عند ظهور الإسلام حتى تمزق رداء صلاحهم المزيّف لكونهم سدنة البيت، ولم ينصلح حالهم إلا بعد أن دخلوا في الإسلام.

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

التفسير: أقول دائمًا أن كلمة (البصير والعليم) إشارةٌ إلى العلم الإلهي فقط، أما (الخبير) فإشارة إلى عَمله بحسب علمه.. أي أنها تدل على إنزاله العقاب على المجرمين علاوة على معرفته بأحوالهم، وهذه الآية دليل على ما أقول، فكلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تدعم موقفي، ذلك أن العلم المطلق ميسّر لله تعالى دائما، ولا معنى لأن يكون عالمًا بالأشياء في يوم معين، فقوله تعالى ﴿لَخَبِيرٌ﴾ يشير إلى أمرين: الأول: أنه لا تخفى عليه جريمة من جرائمهم، وأنه سيعاقبهم بحسب معرفته المفصلة هذه. علمًا أن كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لم ترد في القرآن الكريم إلا مع صفة الله الخبير، فلم يقل الله تعالى أنه "يَوْمَئِذٍ لعليمٌ" أو "يَوْمَئِذٍ لبصير"، بل قال في كل مرة ﴿يَوْمَئِذٍ لَخَبِير﴾، فثبت أن الخبير لا يدل على العلم فقط، بل يدل على عقابهم أيضا. وفي لغتنا – الأردية – أيضا نقول على وجه التهديد: سوف أخبرك! أي سأجزيك على فعلك. فقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ يعني أنه لن يكون يومئذ على علم بأحوالهم فقط، بل سيجزيهم بحسب ذلك أيضا.

وليكن معلومًا أن الله تعالى قد ذكر هذه الكلمات في آخر السورة بعد قوله ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، وذلك للإشارة إلى أنه سيعاقبهم حتما، ولكنه لن

يعاقبهم إلا بعد أن يفضحهم ويكشف للعالم عيوبهم الخفية. وهذا مبدأ أساسي في عقاب المجرمين، ولكن كثيرًا من الناس يجهلونه، فيعترضون على المبعوثين من الله تعالى قائلين: إذا كان هذا صادقًا فلماذا لا يُنـــزل الله العذاب على الناس فور معارضتهم له؟ لقد ردّ الله على اعتراضهم هذا عند الحديث عن أعداء النبي ﷺ، حيث بين أنه لو عاقبهم فورًا لانتابت قلوبَ الآخرين شتّى الشكوك والشبهات وقالوا إن أهل مكة كانوا صالحين طيّبين جدا، فلماذا أهلكهم الله؟ لو أمر الله تعالى محمدا ﷺ أن يقتل أهل مكة فورا لأن قلوبهم مليئة بالإثم والنوايا السيئة، لقال الناس: لقد ظلم محمد وأصحابه أهلَ مكة ظلمًا عظيمًا، إذ قتلوا هؤلاء القوم الذين كانوا صلحاء شرفاء نذروا حياتهم لخدمة ديننا! فكيف يجوز قتلهم هذا؟ أما وقد انكشف الآن للعالم تمامًا ما في بواطنهم من خبث وسوء وشر، وبلغ ظلمهم للمسلمين المنتهى، فيقول كل إنسان شريف إذا لم يحاربهم المسلمون فمن يحاربونه؟ لقد قتلوا الأطفال والنساء والرجال والعبيد وصبّوا عليهم من الفظائع ما يبكي الإنسان ذكرُه، وقد بلغت بهم وقاحتهم أن أجبروا زوجَ بنت النبي ﷺ الكافرَ على تطليقها، مع أنه قد تزوّجَها قبل بعثته ﷺ، ولم يفعلوا ذلك إلا بغضًا لرسالة وحدانية الله التي أتى بها. أما بنته ﷺ الأخرى فوقع زوجها في الأسر، فأخذ منه النبي ﷺ عهدًا أن يبعث ببنته إلى المدينة عندما يرجع، فبعثها إلى المدينة، فخرجتْ على بعيرها، لكن بعض الأشقياء من كفار مكة قطع حبال هودجها فسقطتْ منه، وكانت حاملاً، فأصيبت إصابة ماتت بسببها بعد وصولها إلى المدينة (السيرة النبوية لابن هشام: خروج زينب إلى المدينة، والطبقات الكبرى لابن سعد: ذكرُ بناتِ رسول الله ﷺ). فكم يتنافى عملهم هذا مع الشرف والنبل؟ امرأةٌ حاملٌ تسافر وحدها إلى المدينة على جملها، ولا تؤذي أحدا، لكن الكافرين يهاجمون بعيرها ويلقونها من فوقه، فتصاب إصابة أودت بها بعد وصولها إلى المدينة. هل في العالم

مَن يبيح مثل هذا التصرف؟ هل مِن أحد يمكنه القول بعد هذا أن أهل مكة كان فيهم مسحة من الإنسانية والمروءة؟ كان تصرفًا وقحًا لئيمًا حتى لم تُطِقْه عدوةٌ لدود للإسلام مثل هند، فقالت وهي تعيِّر ذلك الشقيّ: الآن لم يبق لشجعان مكة إلا مهاجمة الحوامل؟ بينما يهربون من أمام المسلمين كما يهرب الفأر المذعور أمام القط.

ولما اشتدت فظائع أهل مكة بالمسلمين هاجر النبي ﷺ من مكة قائلا لأهلها: إذا كنتم لا تريدون بقائي فيها فأنا أتركها، فخَلُّوا سبيلي، لكنهم لم يرتدعوا عن تصرفاتهم، بل خرجوا للهجوم على المسلمين في المدينة على مسافة ٣٠٠ ميل.

هذا هو الشر والخبث الذي كان خافيًا في قلوبهم، وعندما انكشف للناس عاقبهم الله تعالى.

فتقديم قوله ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ على قوله ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ ليس بدون سبب، بل فيه حكمة بالغة، وهي الإشارة إلى أن الله تعالى سوف يُخرِج للناس أولاً ما في بواطن كفار مكة من خبث وفساد وسوء، ثم يأمر المسلمين بالهجوم عليهم لكي لا تقول الدنيا إن محمدا وأصحابه ظلموا أهل مكة. كلا، بل إنهم سيضربونهم بأمرنا بعد انكشاف مساوئهم للناس، وسيضربونهم ضربا قاسيا، وستقول الدنيا إن المسلمين قد أحسنوا صنعًا إذ ضربوهم، بل إنهم يستحقّون عقابًا أشد.

إذن، فقد قدّم الله تعالى قوله ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ على قوله ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ للإشارة إلى هذه الحجة التي كانت ستقام على أهل مكة الكافرين، حيث أخبر ﷻ: لن نعاقبهم قبل إتمام الحجة عليهم. لا شك أنهم كانوا ملطخين بهذه الأرجاس والأدران التي ظهرت الآن، ولكننا لو عاقبناهم قبل ظهورها لقالت الدنيا إن القوم كانوا من كبار الصالحين المقربين، فلماذا عاقبهم المسلمون؟

أما الآن فلا يستطيعون هذا الاعتراض، بل يعترفون أن ما فُعل بهم كان صدقًا وعدلاً.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ يعني أننا نعلم جيدا حال بواطنهم، ولكنا لن نعاقبهم إلا بعد إتمام الحجة عليهم. فأولاً نكشف للناس سوء بواطنهم، ثم بعد أن يطلع الناس على حقيقة أفعالهم وسوء سرائرهم نجعل المسلمين يهاجمونهم، حتى لا يظنّ أحد أنهم أهل صلاح وقداسة.